
ألبرتو مورافيا
غُسطينو
أو
مأساة المُراهقة
دار المكشوف



ألبرتو مورافيا



نقله الى العربية
جورج مصروعه

دار المكشوف

الطبعة الأولى ، بيروت — لبنان ، ايلول ١٩٦٣

١

في اوائل هذا الصيف ، كان غسطينو وامه يقومان كل صباح بنزهة في زورق من النوع المعروف باسم « باتينو » ، وهو كناية عن هيكلين عائمين تصل بينهما عارضة خشبية . وفي النزهات الأولى ، كانت الام تصطحب نوتياً ليساعدهما في قيادة الزورق ، ولكن غسطينو تضايق من وجود النوتي معهما ، فأبدى من الاستياء ما جعل امه تكتفي به ، وتسلمه المجذافين ليتولى القيادة . وها هو يجذّف الآن بسرور في بحر هادىء ، شفّاف ، أطل عليه صباح مشرق بهيج ، وقد جلست الام قبالة ابنها ، وهي زاهية صافية كالسماء والماء ، وراح غسطينو يتكلم متمهّلاً كأنه رجل لا صبي في الثالثة عشرة من العمر .

وكانت الام طويلة القامة ، حسناء ، في زهرة العمر ، مما جعل غسطينو كبير الاعتزاز بنفسه ، يشعر بالفخر يملأ بردتيه كلما ركب الزورق مع امه للقيام بنزهتهما

الصباحية . وكان يخيّل اليه ان جميع روّاد الشاطىء من هواة السباحة يحدّقون اليها اعجاباً بالام وحسداً للولد . واقتناعه التام بأنـه يسترعي الانتباه العام جعله يحس انه يتكلم بصوت أعلى من صوته العادي ، ويتحرك بطريقـة خاصة ، كأنه في جوٍّ مسرحي ، وكأنه وأمه يعرضان تمثيلية على انظار مئات المشاهدين عوضاً عـــن ان يقوما بنزهة على الشاطىء . وفي بعض الاحيان ، كانت الام تبدو متدثرة بزي جديد من ثياب السباحة ، فـــلا يستطيع غسطينو إلا ان يبدي ملاحظته بصوت مرتفع ، وهو يودّ ، في قرارة نفسه ، ان يسمعه الناس المحيطون به . وكانت أحياناً ترسله الى حجرتها القائمة على الشاطىء ليأتيها بشيءٍ ما تكون قد نسيته ، وتنتظره واقفةً الى جانب الزورق ، بقامتها الفارعةِ ورأسها الشامخ . فـــكان غسطينو يطيعها مسروراً ، وهو مبتهج باطالة وقت انتظارها ، ولو دقائق معدودة ، ليطول مشهد صعودهما الى الزورق على مرأى من الناس . واخيراً ، كانا يركبان زورقهما ، فيتناول غسطينو المجذافين ، ويباشر عمله ، فيدير مقدمة الزورق ، وينطلق به بعيداً عن الشاطىء . إلّا انه كان يظل فترةً طويلة متأثراً بما ساوره من الاعتزاز البنوي .

وعندما كانا يبلغان مكاناً بعيداً عن الشاطىء ، كانت

الام تطلب الى ولدها ان يتوقف ، ثم تعتمر قبّعةً من المطّاط ، وتخلع نعليها الخفيفين ، وتنساب في الماء انسياباً ، فيتبعها غسطينو ، ويسبح الاثنان حول الزورق المهجور ، ومجذافاه متروكان لعبث الموجات كجناحين مهيضين . وكانا يتبادلان اقوالاً مفعمة بالفرح ، فيرنّ صوتاهما عاليين ، صافيين ، في صمت تغمره الاضواء .

وكانت تبدو لهما احياناً قطعة فلين عائمة على مسافة منهما ، فتشير الام اليها ، داعية ابنها الى مباراة في السباق لبلوغ هذا الهدف المرتجل ، وتتركه يسبح حتى يسبقها قليلاً ، ثم تنطلق وراءه الى قطعة الفلّين . واحياناً اخرى كانا يصعدان الى الزورق ، ويقفزان منه الى البحر ، فينشقّ الماء الاملس الصافي تحت ثقل جسديهما ، ويرى غسطينو جسم امه يغوص في غمرة من الفوران الاخضر ، فيغطس بدوره مسرعاً ، وفي نفسه توق الى اقتفاء اثر ذلك الجسد ، أينما كان ، وكيفما توجّه ، حتى الى اعماق اللجة . ثم يواصل السباحة في خط التموّجات الذي تخلفه امه وراءها ، فيُخيّل اليه ان المياه ، على الرغم من ميعانها وبرودتها ، تنطبع بأثرٍ باقٍ من مرور الجسد الحبيب فيها.

وبعد انتهاء الاستحمام ، كانا يصعدان الى زورقهما ، ويجيلان انظارهما في الرحاب الهادئة المتألقة بالنور ، فتقول

الام : « أليس جميلاً هــذا المشهد ؟ » ويلزم غسطينو الصمت ، فلا يجيب ، لأنه كان يحس ان سرورهما بتلك المباهج الطبيعية ناجم ، في قسمه الاكبر ، عما بينهما من التجاوب والتفاهم العميق . وكان يسائــل نفسه احياناً : « ترى ، ما الذي يبقى من هــذا الجمال برمته لولا هذا التفاهم ؟ »

وكانا يبقيان طويلاً بعيدين عــن الشاطىء حتى يجف جسداهما في حرارة الشمس التي كانت تشتد احتداماً بقدر مــا تقترب الظهيرة . ثم كانت الام تستلقي متمددة على العارضة الواصلة بـين هيكلي الزورق ، مرخية شعرها في الماء ، مقدّمة وجهها للشمس ، مغمضة عينيها ، فتبدو كأنها راقدة ، بيــنما غسطينو جالس على المقعــد ، ينظر الى ما حوله والى امه ، حابساً انفاسه كي لا يعكر رقادها . وفجأة كانت النائمة تفتح عينيها وتقول انهــا لمتعة جديدة ان يستلقي المرء هكذا ، مغمض العنيين ، يشعر بالمياه تزلق تحت ظهره وتتموّج ، او تطلب الى غسطينو ان يناولها سيكارة ، أو تقول له — وهذا ما كان يملأ نفسه حبوراً — ان يشعل السيكارة قبل ان يقدمها لهــا . فكان الولد ينفـّذ هذه المطالب فوراً باجتهاد فيه كثير من الرغبة وحرارة الورع .

وكانت الام تدخن في صمت ، وقد ادار الولد لها ظهره ، منحنياً قليلاً الى الأمام ، ومائلاً برأسه جانبياً ، ليرى سحابة الدخان الازرق الدّال على مكان الرأس الحبيب المستريح على سطح البحر ، مبعثر الشعر في الماء .

وما كانت الام لتشبع من دفء الماء ، فتطلب الى ولدها ان يجذّف دون ان يلتفت الى وراء ، فيتسنّى لها ان تخلع حزام صدرها ، وان تخفض المايو عن بطنها ، لتعرض للشمس أكثر ما يستطاع عرضه من جسدها . وفي هذه الاثناء ، كان غسطينو يحرك المجذافين ، وهو شديد الفخر ، كأنه سُمح له بأن يشترك في مراسم طقس ديني يحف به الجلال . ولم تكن فكرة الالتفات الى وراء بعيدة عن ذهنه وحسب ، بل ان الجسد العاري خلفه في وهج الشمس كان يتجلى في خياله كأنه ملتحف بسرّ يفرض الاحترام والوقار .

وذات صباح ، كانت الام تحت مظلتها على الشاطىء ، وغسطينو الى جانبها على الرمل ينتظر ساعة النزهة المعتادة ، فاذا بظل رجل يقف على مقربة منه حاجباً عنه الشمس . فرفع الولد نظره ، فرأى شاباً اسمر يمد يده الى امام ، وقد خلعت الرياضة البحرية على جسده لون النحاس .

ولم يعر الولد ذلك الحادث انتباهاً ، اذ تبادر الى ذهنه ان مجيء الشاب الاسمر لم يكن إلا زيارة عابرة على سبيل الصدفة ، فابتعد قليلاً بانتظار نهاية الحديث بين امه والزائر . ولكن الشاب ، عوضاً عن ان يجلس تلبية للدعوة الموجهة اليه ، اشار الى زورقه الابيض ، ودعا ام غسطينو الى القيام بنزهة بحرية معه . وكان الولد واثقاً بأن امه سترفض الدعوة كما رفضت غيرها من قبل ، ولكن كم كانت دهشته كبيرة لما رأى امه تقبل فوراً . وتلمّ خفّيها وحقيبتها وقبعتها ، ثم تنهض من مكانها . قبلت دعوة الشاب بالبساطة واللطف والعفوية التي كانت تنطبع بها علاقاتها بابنها . ثم التفتت الى غسطينو الذي كان جالساً على الارض ، منحني الرأس ، يملأ قبضته رملاً باجتهاد ثم يرفعها لينساب الرمل على مهل من بين اصابعه ، وقالت له انها ذاهبة للقيام بجولة صغيرة ، وما عليه إلا ان يستحم كالعادة ريثما تعود بعد قليل . واتجه الشاب الاسمر صوب زورقه ، وتبعته المرأة طائعة ، وهي تمشي مشيتها العادية ، البطيئة ، المتسمة بالهدوء والجلال . ولما رآهما غسطينو يبتعدان ، لم يستطع إلا ان يقول في نفسه ان الشاب يشعر الآن ، ولا ريب ، بما كان يشعر هو به من الفخر والغرور والتأثر عندما كان يرافق امه ليركب الزورق معها . ورأى امه تصعد الى

الزورق الابيض ، ثم رأى الشاب يميل بجسمه الى وراء ويقود الزورق بقوة الى عرض البحر . رأى الشاب يجذف كما رأى امه جالسة قبالة الشاب ، وقد استندت بيديها الى المقعد كأنها تحدث رفيقها . ورويداً رويداً بدأ الزورق يصغر بقدر ما يبتعد عن الشاطىء ، ثم ولج فيضاً من النور الباهر المتدفق من الشمس على الامواج ، وتوارى عن النظر كأنه ذاب في غمر من الضياء .

وبقي غسطينو وحده ، فاستلقى على مقعد امه الطويل ، مسنداً رأسه بيده ، ناظراً الى السماء ، في وضع من يفكر ولا يبالي . وتبادر الى ذهنه أن روّاد الشاطىء ، الذين لاحظوا في الايام السابقة نزهاته مع امه ، قد انتبهوا الآن الى ان امه تركته وحيداً وذهبت مع الشاب . فكان عليه ان يبذل اقصى الجهد كي لا تظهر عليه مرارة الخيبة ، ولكن عبثاً حاول الاحتفاظ بمظهر الهدوء ، فقد خيل اليه ان الجميع يقرأون في وجهه ان لامبالاته مصطنعة .

ومما زاد في نكده وآلام نفسه ليس ما رأى من تفضيل الشاب عليه ، بل تلك العجلة الحارّة ، المفعمة بالسرور ، والمرتدية طابعاً خاصاً ، التي اظهرتها امه لدى قبولها الدعوة .

جرى ذلك كله كأنه عن تصميم سابق ، كما لو كانت الام

قد قررت من زمان ، بينها وبين نفسها ، ان لا تترك تلك الفرصة تفوتها ، وان تغتنمها دون تردد متى سنحت لها ، وكما لو كانت في نزهاتها السابقة قد عانت السأم والضجر ، ولم تذهب معه ، هو غسطينو ، إلا لأنها لم تجد رفيقاً افضل منه . وجاءت احدى ذكريات الولد تضاعف غيظه ، وهي ذكرى حفلة راقصة دُعيت اليها امه فاصطحبته ، وذهبت معها نسيبة لهما كادت تيأس في بدء الحفلة لأنها لم تسترع انتباه الشبان هواة الرقص ، فقبلت ان ترقص معه مرتين ، وهو صبي امرد ما يزال يرتدي بنطلوناً قصيراً . ولكنها كانت تراقصه والاستياء بادٍ عليها ، واضح في ملامحها . وقد لاحظ غسطينو ، على الرغم من انصرافه كلياً الى الرقص ليكون رقصه صحيحاً ، انها كانت مستخفة به . ومع ذلك فقد دعاها الى الحلبة مرة ثالثة ، فاستولت عليه الدهشة لما رآها تبتسم فجأة ، وتنهض وهي تربّت على تنورتها لتزيل ما حدث فيها من الغضون . ولكنها عوضاً عن ان ترتمي بين ذراعيه ، ذهبت الى شاب كان واقفاً وراءه ، دعاها الى الرقص ، فلبت دعوته بحماسة .

لم تستغرق تلك الحادثة اكثر من خمس ثوانٍ ، ولم ينتبه لها احد غير غسطينو الذي احس ان كرامته امتهنت ، وان الجميع لاحظوا الاهانة التي نزلت به .

وها هو الآن ، بعد ذهاب امه مع الشاب ، يقارن بين الحادثتين ، ويرى انهما متماثلتان : ان امه ، كتلك النسيبة ، كانت تنتظر الفرصة المؤاتية لتتركه ، فقبلت ، بالسهولة نفسها وبسرعة تحدوها الرغبة ، اول رفيق دعاها اليه ؛ وفي الحادثة الثانية ، كما في الاولى ، سقط هو من ذروة اوهامه كأنه هبط من قمة جبل ، وبقي في خيبته واجماً متألماً .

ودامت النزهة ساعتين . ومن المكان الذي كان غسطينو يجلس فيه تحت المظلة ، رأى امه تنزل الى الشاطىء ، وتمد يدها الى الشاب ، وتسير على مهل على طريق حجرتها ، خافضة رأسها تحت شمس الظهيرة . وكان الشاطىء مقفراً ، في ذلك الحين ، مما خفّض نوعاً ما آلام غسطينو لاعتقاده انه وامه قبلة انظار الناس .

وما إن وقعت عينها عليه حتى بادرته قائلة :

— وانت ؟ ماذا فعلت ؟

أجاب : « تسليت هنا ! » وراح يقص عليها انه ذهب الى البحر مع الاولاد المقيمين في الحجرة المجاورة لحجرتها . إلا انها لم تعر اخباره انتباهاً ، بل اسرعت الى الحجرة وارتدت ثيابها . فقرر غسطينو ان يتوارى عن الانظار ، في اليوم التالي ، عندما يرى من

بعيد الزورق الابيض ، لأنه لا يستطيع احتمال الاهانة نفسها مرتين . ولكنه ، في اليوم التالي ، ما كاد يهم بالفرار حتى نادته امه قائلة :

— تعال !

واستطردت ، وهي تنهض وتلملم حوائجها :

— سنتنزه معاً .

فلحق بها ، ظناً منه انها تنوي صرف الشاب لتبقى وحدها معه .

وكان الشاب ينتظرهما واقفاً في زورقه ، فحيّته ، ثم قالت له بكل بساطة :

— ابني ذاهب معنا .

ومن نكد غسطينو انه جلس الى جانب امه ، قبالة الشاب الذي راح يجذف .

اعتاد غسطينو ان يرى امه دائماً محافظة على وقارها ، وهدوئها ، وتحفظها ، فذُهل لما راقبها في تلك النزهة ورآها متغيرة ، ليس بتصرفاتها واحاديثها وحسب ، بل بشخصيتها بالذات كأنها أصبحت امرأة اخرى . فما كاد الثلاثة يبتعدون عن الشاطىء حتى اطلقت ام غسطينو تلميحاً لاذعاً حافلاً بالألغاز والمعاني المضمرة ، ثم دخلت مع الشاب في مناقشة غريبة حامية . وكان موضوع الحديث ، حسب

ما استطاع غسطينو ان يفهم ، صديقة للشاب ، لها عشيق آخر يحظى منها بأكثر مما يحظى به الشاب . ولكن هذا الحديث لم يكن إلا بمثابة تمهيد لأحاديث مشبعة بالالحاح ، والتلميح ، والاستفزاز ، والخباثة . وكانت ام غسطينو تبدو في ذلك الصراع عنيفة ، ولكن عاجزة عن المقاومة كأنها عزلاء . وكان الشاب يرد على غاراتها بهدوء محكم التصنع ، يكاد يكون تهكمياً ، كرد رجل يثق بنفسه لشعوره بأنه الأقوى . أما هي فكانت تبدو احياناً مستاءة ، وحتى غاضبة ، فيفرح غسطينو بذلك الغضب . إلا ان كلمة لطيفة من الشاب كانت تقلب الموقف ، فيفقد الولد شعوره بالفرح . وأحياناً اخرى كانت توجه الى الشاب سلسلة من التوبيخ الغامض بلهجة من يؤمن بصحة ما يقول . وبدلاً من ان يرد الشاب محتجاً ، كان يبدو فخوراً راضياً عن نفسه . فيستنتج غسطينو ان التوبيخ لم يكن توبيخاً حقيقياً ، وانه يخفي معنى آخر لا يستطيع هو ادراكه . وعلى كلٍّ فان امه والشاب كانا يتحدثان متجاهلين وجوده . وقد اوضحت الام موقفها اللامبالي لما قالت للشاب انها اخطأت في اليوم السابق بالذهاب معه وحدها ، وان هذا الخطأ لن يتكرر ، وان ابنها سيكون الى جانبها بعد اليوم . فاعتبر غسطينو

هذا القول مهيناً له كأنه شتيمة ، وساوره ظن ان امه لا تعامله معاملة مخلوق بشري ، بل تحسبه شيئاً تحت تصرفها ، تستعمله كما يوافقها وحسب اهوائها .

ولم تنتبه إلا مرة واحدة الى انه يجانبها ، وكان ذلك حين ترك الشاب المجذافين ، وانحنى عليها بمظهر بالغ الخباثة ، هامساً بكلمات لم يستطع ان يفهم منها شيئاً . لكن الام انتفضت متظاهرة بأنها تستفظع ما تسمع ، وبدت كأنها تستنكر فضيحة شائنة ، ثم قالت وهي تشير الى ولدها : « كنت تستطيع ، على الاقل ، ان تنتبه الى وجود هذا الولد ، فقد يسمع ما تقول ! »

وما إن سمع غسطينو هذه الكلمات حتى ارتعش جسمه من القرف والاشمئزاز ، كأن خرقة قذرة طُرحت عليه والتصقت به فعجز عن التخلص منها .

ولما ابتعدوا كثيراً عن الشاطىء ، اقترح الشاب على رفيقته النزول الى البحر ، فاستولت على غسطينو دهشة مليئة بالألم حين رأى امه تقف مرتبكة ، وتفقد ما كانت تتحلى به من الرشاقة والكياسة والبساطة اللائقة لدى انسيابها في الماء . وكان الشاب قد غطس وعاد الى سطح البحر ، وهي ما تزال مترددة ، تلامس الماء برجلها كأنها حائرة بين الاقدام والاحجام . وبعد قيامها بحركات كثيرة

من هـذا النوع وهي تضحك ، تمسكت بمقعد الزورق ، وتمددت جانبياً رافعة احدى ساقيها بطريقة غير لائقة ، وارتمت دون لباقة بين ذراعي رفيقها . وغطس الاثنان معاً ثم عادا الى سطح الماء . وانطوى غسطينو على نفسه ، ينظر الى وجه امه الضاحك بالقرب من وجه الشاب الاسمر الرصين ، فخيّل إليه ان خدي السابحين يتلامسان . وفي الماء الصافي كان الجسدان ظاهرين في تحركهما العابث ، واحدهما الى جانب الآخر ، يتصادمان بالخصرين والسيقان ، كأنهما في شوق الى التلاصق والاندماج . وكان غسطينو ينظر اليهما وهو يشعر بالخجل . ومن الماء ، حيث كانت الام تتقلب لاهية هانئة ، رأت وجه ابنها مكفهراً كالحاً ، فوجهت اليه ، للمرة الثانية في ذلك الصباح ، عبارة آلمته بقساوة اذ قالت له : « لماذا تعبس هكذا كأنك في مأتم ؟ ألا ترى ان كل شيء جميل هنا ؟ رباه ، ما أشد رصانة ابني ! » ولكن غسطينو لم يجب ، بل حوّل نظره الى جهة اخرى .

وطالت فترة الاستحمام كأن لا نهاية لها ، وكان الشاب والمرأة يتخبطان في الماء كأنهما دلفينان ، وكأنهما نسيا تماماً وجود الرفيق الثالث الذي يشاهد ألعابهما .

واخيراً رجعا . فقفز الشاب الى الزورق وانحنى على المرأة التي كانت تستنجد به . ورأى غسطينو يدي الشاب تقبضان على جسم المرأة لتنشلاه من الماء ، فتغوص اصابعها في المكان الاسمن والاطرى بين الابط والكتف .

وجلست الام الى جانب ولدها ، وهي تبتسم وتتنفس ملء صدرها ، ثم جعلت ترفع المايو المبتل باظافرها المسننة ، كي لا يلتصق بحلمتي نهديها . ولكن غسطينو تذكر أن امه النشيطة ، القوية ، لم تكن في نزهاتهما السابقة بحاجة الى احد ليرفعها الى الزورق ، فعزا استنجادها بالشاب واسترخاء جسدها في مظهر الضعف والذلال ، الى تلك الروح الجديدة التي احدثت فيها ذلك التبدل المثير . ولم يستطع إلا ان يقول في نفسه ان امه ، الحسنة القوام ، المشوقة القد ، كانت تأسف لكونها كبيرة تفرض الاحترام ، وتودّ ان تتخلص بكل سرور من مظهرها الأبي النبيل، كما تتخلص من عادة مزعجة لتقوم بتلك الحركات الركيكة التي كانت تحاول الظهور بها .

وبعد انتهاء فترة السباحة توجه الزورق الى الشاطىء .

وهذه المرة أُعطي غسطينو المجذافين ، بينما جلس الشاب والمرأة على العارضة الممتدة بين هيكلي الزورق .

فراح الولد يجذف على مهل تحت اشعة الشمس المحرقة ، وهو يسائل نفسه عن معنى الاصوات والضحكات والحركات التي يحس بها خلفه . وكانت امه ، من حين الى آخر ، تتذكر وجوده معها ، فتمد يدها اليه وتداعب نقرته مداعبة غير لبقة ، أو تدغدغه تحت ابطه وتسأله هل تعب ، فيجيبها : « لا ، لم أتعب بعد . » وعندئذ كان يسمع الشاب يقول ضاحكاً : « التجذيف تمرين ممتاز بالنسبة اليه . » فيتألم غسطينو ، ويضرب الماء بمجذافيه غاضباً . وكانت امه تلقي رأسها على مقعده وتمد ساقيها فوقه . ولكن كان يبدو له انها لا تحافظ على ذلك الوضع ، ففي احدى الفترات جرى ما يشبه المعركة : مصارعة سريعة كادت الام فيها تختنق ، فنهضت متلعثمة تلوك كلمات مبهمة ، ومال الزورق على أحد جانبيه ، فالتصق خد الولد ببطن امه ، فخيِّل إليه ان هذا البطن واسع كالسماء ، يختلج كأن فيه حياة غريبة وحشية .

ووقفت الام منفرجة الساقين ، متشبثة اليدين بكتفي ابنها وهي تقول للشاب :

— لن اعود الى الجلوس بالقرب منك إلا اذا وعدتني بأن تكون هادئاً مهذباً .

فأجاب الشاب بلهجة رسمية فرحة فيها رنة النفاق :

– اعدك بذلك .

فانطرحت المرأة من جديد على العارضة بحركة خالية من اللباقة ، ولامست مرة اخرى ببطنها خد ولدها .

ان رطوبة هـذا البطن المحصور في المـايو المبتل بقيت على جلد غسطينو حيث اخذت تتبخر تحت تأثير حرارة أشد ، ولكن الولد ، على الرغم من شعوره العميق والمثير بالقرف ، تجلد متألماً وصبر ، فما مسح خده .

ولما أصبحوا على مقربة مـــن الشاطىء ، قفز الشاب برشاقة الى المقعد وتناول المجذافين من يدي غسطينو الذي اضطر الى الجلوس من جديد بالقرب من امـه . فبادرت هذه الى تطويـق خصره بذراعيها – وكانت هذه البادرة غير مألوفة منها ولا مبرر لها – ثم سألته :

– وبعد ، كيف حالك ؟ أمسرور أنت ؟

فاهت بعبارتها بلهجة من لا ينتظر جواباً . وكانت تبدو سعيدة الى اقصى حد . وفجأة جعلت تغني بصوت رخيم فيه تغريد مؤثر جعل الولد يرتعش في اعماقه . وكان ذلك منها شيئاً آخر غـير مألوف . وبينما كانت تغـني راحت تشد غسطينو اليها وتبـله بالماء الذي تشرّب بـه ثوبها البحري ، هذا المـاء الذي سخن وانقلب نوعاً مـن العرق

بحرارة حيوانية فيها شراسة وعنف . وهكذا كانت الام المترنمة ، والولد المستسلم لعناقها ، والشاب المنصرف الى التجذيف يؤلفون مشهداً لم يخف على غسطينو ما في مظهره الطبيعي من التصنّع .

واخيراً بلغوا الشاطىء .

وبعد يومين هادئين جرت نزهة جديدة . ثم بدت العلاقات الحميمة بين الشاب والمرأة كأنها تنمو يوماً بعد يوم ، حتى أصبح الشاب يأتي كل صباح ليذهبا معاً الى البحر ، فيضطر غسطينو الى مرافقتهما كل صباح ، والى حضور ما يجري بينهما من احاديث ومن ألعاب في السباحة . وأصبحت تلك النزهات في نظره كريهة ، قبيحة ، فراح يبذل الجهد ليفر منها . راح يتوارى عن الانظار ، ويظل مختبئاً حتى ترغمه امه على الظهور بكثرة ندائها ، فيظهر متأثراً بشفقته عليها لما يحل بها من الأسى والخيبة أكثر من تأثره بالرغبة في تلبية النداء . واحياناً اخرى كان يعبس مظهراً الكآبة والاستياء على أمل ان يفهم الاثنان انه متضايق ، فيدعاه وشأنه . ولكنه كان دائماً يتخاذل ويستولي عليه الضعف اذ تأخذه الشفقه على امه وعلى رفيقها ، لأنهما كانا يتخذان منه ستاراً يحجبان به حقيقة علاقاتهما عن عيون الناس . هذا ما ادركه الولد

بسهولة ، كما أدرك انهما لا يعيران شعوره اقل اهتمام .
وعلى الرغم من المحاولات البارعة التي بذلها لينقذ امه ،
ظلت تلك النزهات البحرية تتوالى يوماً بعد يوم .

٢

ذات صباح ، كان غسطينو جالساً على الرمل ، وراء مقعد امه الطويل ، ينتظر ان يطل الزورق الابيض من بعيد ، وان تحرك المرأة يدها داعية الشاب اليها . ولكن مرت الساعة التي اعتاد الشاب ان يأتي فيها ، واعربت الام ، بمظاهر الخيبة البادية على وجهها ، عن انها لم تعد تتوقع مجيئه .

وكثيراً ما كان غسطينو يسائل نفسه ما يكون شعوره في مثل تلك الحال ، وكان دائماً يستنتج ان سروره سيكون ، على الأقل ، مضاهياً لخيبة امه . ولكنه ذُهل عندما احس أنه لا يشعر إلا بالفراغ . وادرك بغتةً ان ما حل به من الذل والاشمئزاز خلال تلك النزهات اليومية في الفترة الاخيرة قد اصبح ، تقريباً ، من مقوّمات وجوده ، وأحس أنه مدفوع برغبة قلقة مبهمة الى تعذيب امه ، فراح يسألها تكراراً أتنوي القيام بنزهتها العادية ،

فتجيبه كل مرة بانها لا تدري ، وترجّح ان لا .

كانت جالسة على مقعدها الطويل ، وعلى ركبتيها كتاب مفتوح ، إلا أنها لم تكن تقرأ فيه . ومن حين الى آخر كانت ترفع عينيها وتنظر الى البحر المكتظ بالزوارق والمستحمين ، وفي وجهها تعبير ناطق بخيبة من يبحث ولا يجد .

وبعد ان جلس غسطينو طويلاً وراء المقعد الطويل ، راح يدور حوله جاراً نفسه على الرمل ، ويردّد السؤال نفسه بلهجة أحس انها مزعجة ومثيرة حتى بالنسبة اليه ، وأدرك انها تكاد تكون تهكمية ساخرة ، اذ كان يسأل : « أصحيح اننا لن نذهب في الزورق اليوم ؟ » وكأن امه احست بسخريته ، وبرغبته في إيلامها ، او ان الاسئلة الخالية من الحذر والحكمة جعلت ثورة غضبها المحتدمة في اعماقها منذ أمد طويل تفور وتفيض ، فرفعت يدها وصفعت ولدها بحركة رآها غسطينو رخوة وخالية من التعمّد . وما لبثت ان ندمت على عملها ، فلزم غسطينو الصمت ، وانقلب على الرمال ، ثم نهض ، وركض صوب الحجرة خافضاً رأسه ، كأنه ينوء بعبء ثقيل .

وسمع امه تناديه مرات متتالية : « غسطينو ... غسطينو ... » ثم خفت الصوت واختفى . ولما التفت الولد

الى وراء ، خيّل اليه انه يرى بين الزوارق العديدة المزدحمة في البحر ، الزورق الابيض ، زورق الشاب . ولكن منذ تلك الساعة لم يعد ذلك الامر يهمه . فقد كان مدفوعاً بشعور قوي قاهر كشعور من اكتشف كنزاً . فراح يختبىء بسرعة ليتمتع بمشاهدة كنزه على هواه ، راح يلطى بعيداً عن الانظر مع صفعته ، وهي شيء جديد يكاد لا يصدّق بالنسبة اليه .

كان يحس كأن في خده ناراً تحرقه ، وكانت عيناه مغرورقتين بالدموع ، وهو يبذل جهده كي لا يدعها تنهمر قبل وصوله الى مكان يختبىء فيه . وجعل يركض بكل قواه ، وهو منطوٍ على نفسه . والمرارة التي تراكمت فيه ، طوال الايام التي اضطر خلالها الى مرافقة امه والشاب ، اخذت تجيش في صدره ، وصعدت الى حلقه موجةً عكرةً ، وخيّل اليه انه حين يتحرر منها بذرف دموع غزيرة سيفهم اخيراً بعض الشيء من تلك القضية الغامضة التي تمر به مشاهدها .

ولما وصل الى جوار الحجرة ، تردد برهة ، باحثاً عن مكان يختبىء فيه ، ثم بدا له ان افضل مكان ينزوي فيه هو حجرة امه . فمن المفترض ان تكون امه قد ذهبت في الزورق ، ولن يأتي أحد الى الحجرة ليزعجه . وعلى هذا

الامل صعد درجات السلم القليلة ، وفتح الباب ثم رده خلفه دون ان يغلقه تماماً . وجلس في احدى الزوايا على كرسي خشبي صغير .

انطوى مسنداً صدره بركبتيه ، ملقياً رأسه على الحائط ، وواضعاً وجهه بين يديه ، ثم جعل يبكي على مهل كأنه يقوم بعمل يتطلب الكثير من العناية . وكانت الصفعة تتراءى له من خلال دموعه كبرق يمزق سماء عاصفة ، فيسائل نفسه : لماذا كانت يد امه على جانب من الارتباك حين ضربت بتلك الشدة ؟ ان شعوره اللاذع بالذل ، الذي ايقظته فيه الصفعة ، اختلط بشدة – اذا كان المزيد من الشدة ممكناً – بمختلف ذكرياته وانطباعاته التي احدثت في نفسه جروحاً بليغة أليمة خلال الفترة الاخيرة . وواحدة من تلك الذكريات خصوصاً كانت تعود لتحزّ في نفسه باصرار والحاح ، وهي ذكرى الانطباع الذي احدثه فيه بطن امه لما التصق بخده ، وهو محصور في المايو المبتلّ ، يختلج بحيوية كلها توق ونهم لا يجد لهما تفسيراً . وكما ان الثوب العتيق تظهر فيه خطوط من الغبار الكامن فيه حين يصاب بضربة ، هكذا ايقظت الصفعة في نفس غسطينو شعوراً لاذعاً ببطن امه الملتصق بخده ... صفعته ظلماً ، وبدافع من ضيق صدرها وفراغ

صبرها ، فملأت نفسه مرارة ، وحركت ما في اعماقه من رواسب الآلام الراكدة .

وفي بعض الاحيان كان يخيَّل اليه ان شعوره ببطن امه يحل محل شعوره بالصفعة التي آلمته ، ثم يحس ان الشعورين يختلطان ليصبحا مزيجاً من الاختلاج والاحتراق .

وجد بسهولة تفسيراً لاستمرار اللهيب الذي تركته الصفعة على خده ، وكان هذا اللهيب يخمد قليلاً ليحتدم من جديد . اما استمرار شعوره بالانطباع القديم الذي تركه بطن امه على خده ، فقد ظل في ذهنه لغزاً مغلقاً .

لماذا بقي ذلك الشعور منطبعاً في نفسه بتلك القوة المميزة بين طائفة من الاحاسيس الاخرى ؟

هذا ما لم يعرف له سبباً . كل ما كان يعلم انه طوال ايام حياته سيكفيه ان يتذكر تلك النزهة ليحس ببطن امه يرتعش ملتصقاً بخده وملتفاً بقماش المايو الخشن المبلل .

كان يبكي بهدوء كي لا يعكّر نشاط ذاكرته الموجع . وفي اثناء بكائه كان يسحق باطراف اصابعه ، على وجهه الوسخ ، الدموع المنهمرة من عينيه على مهل ، ولكن دون انقطاع . وكانت الحجرة غارقة في عتمة خانقة . فأحس فجأةً ان الباب ينفتح ، وانه يود في سرّه ان تأتي امه

اليه نادمة ، وان تضع على كتفه احدى يديها بعطف ومحبة ، وتأخذ باليد الاخرى ذقنه وتدير وجهه اليها .

وراحت شفتاه تستعدان لتهمسا : « ماما ! » ، ولكن على الرغم من انه سمع احداً يدخل الحجرة ويغلق الباب ، لم تمتد اليه يد لتلامس كتفه ، أو لتداعب وجهه ، فرفع رأسه ونظر ، فرأى ولداً في مثل عمره تقريباً ، يرتدي بنطلوناً قصيراً مشمراً وكنزة واسعة الفتحة حول العنق ، وفي وسطها ، عند الظهر ، ثقب كبير ، وقد وقف خلف الباب المشقوق وقفة من يراقب شيئاً او احداً في الخارج . وكان خيط باهر من اشعة الشمس ينساب من شقٍ في سقف الحجرة ، فتلمع تحته كتلة من الشعر المشعث النحاسي اللون على نقرة ذلك الولد الذي وقف حافياً ، ويداه على شق الباب ، يراقب الشاطىء . وكان يبدو عليه انه لم ينتبه لوجود غسطينو .

مسح غسطينو عينيه بقفا كفه وخاطب الولد قائلاً :

— هيه ! ... ماذا تريد ؟

فاستدار الولد ، وأشار اليه بان يلزم الصمت ، فبدا وجهه قبيحاً مطروشاً بالنمش ، وفيه عينان معتكرتان لونهما ازرق مائل الى الاصفرار . حسب غسطينو انه يعرفه ، فهو ولا ريب ابن أحد معلمي السباحة ، أو

أحد النوتيين ، وقد يكون غسطينو رآه يدفع احد الزوارق الى البحر في مكان ما قريب من الشاطىء الذي تقوم عليه الحجرة .

وبعد قليل ، التفت الولد الى غسطينو وقال له :

– اننا نلعب لعبة رجال البوليس واللصوص ، ولا يجوز ان يراني أحد .

فسأله غسطينو وهو يكفكف دموعه :

– وما هو دورك في هذه اللعبة ؟

فأجاب الولد وهو يعود الى المراقبة :

– أنا ؟ اني لص ، طبعاً .

وراح غسطينو ينظر اليه بامعان ، وهو يصغي اليه يتكلم بلهجة عامة الشعب ، لهجة قاسية ، جديدة بالنسبة اليه ، وايقظت في نفسه الفضول ؛ ثم احس ان غريزته تقول له همساً ان ذلك الغريب اللاجىء هو فرصة سانحة لا يجوز له ان يتركها تفوته . ولكن لو سئل عن ماهية هذه الفرصة لارتبك عاجزاً عن الجواب .

وأخيراً قال للولد بجرأة :

– أتريد ان ألعب أنا ايضاً معكم ؟

فنظر اليه الولد من علُ وأجاب :

– انت ؟ ألا تفكر بما تقول ؟ اننا رفقاء ، وانت

لست منا .

قال غسطينو بالحاح وقح :

— وما يهم ؟ ضمني الى عصابتك .

فهزّ الولد كتفيه وأجاب :

— فات الوقت الآن ، واللعبة على وشك الانتهاء .

— اذاً ، الى اللعبة المقبلة ...

— لن نلعب مرة اخرى ، وانما سنذهب بعدها الى غابة الصنوبر .

قال الولد هـذا وهو ينظر الى غسطينو بشيء من التعجب والحيرة ، كأن ذلك الالحاح قد اذهله . ولكن غسطينو استطرد قائلاً :

— اذا كنتم تقبلون بي ، فاني اذهب معكم .

فجعل الولد يضحك وفي ضحكه مزيج مـن العبث والاحتقار . ثم قال :

— انت ولد عجيب مضحك ... اسمـع جيداً : اننا نجتنب الاولاد الذين على شاكلتك .

لم يكن غسطينو قـد وقع من قبل في مثل ذلـك الارتباك ، ولكن الغريزة ، التي جعلته في البدء يلتمس من الولد ان يلعب معه ، سوّلت له الآن ان يلجأ الى جميع ما لديه من الوسائل ليكون مقبولاً ، فقال متردداً :

– اسمع ... اذا قبلتني في عصابتك اعطيتك شيئاً ...

فاستدار الولد بسرعة ، والجشع يلمع في عينيه ، وسأل :

– ماذا ؟

– ما تريد ؟

– ماذا ، مثلاً ؟

فاشار غسطينو الى مركب شراعي صغـــير ملقى في زاوية الحجرة بين بعض اللعب المبعثرة ، وقال :

– هذا المركب .

– فأجاب الولد وهو يرفع كتفيه استخفافاً :

– وماذا تريد ان افعل به ؟

قال غسطينو :

– تستطيع ان تبيعه .

فأجاب الولد بلهجة الخبير بهذه الامور :

– لا يشتريه مني أحد ، فالناس يظنون اني سرقته .

ولما احس غسطينو انه يكاد يفقد الأمل بنجاح محاولته ، جعل ينظر الى ما حوله ، فرأى ثياب امه متدلية مـــن العلّاقـــة ، وكانت على الارض اسكربينة ، وعلى الطاولة محرمة واشياء مختلفة من أدوات التبرج ، ولم يجد في الحجرة شيئاً يستطيع ان يقدمه .

وما إن رآه الولد في تلك الحيرة حتى خاطبه قائلاً :

– اسمع ، يا هذا ، أليس لديك سواكير ؟

فتذكر غسطينو ان امـه كانت قد وضعت صباحاً في حقيبتها المعلقة مع ثيابها علبتي سواكير من النوع الفاخر . فاستعجل وأجاب : « بـلى . عندي سواكير ... فهـل تريد بعضها ؟ »

فقال الولد بتهكم فيه احتقار :

– وهل يحتاج هذا الى سؤال ؟ مـا أشد بلاهتك ! هات ، أرني سواكيرك .

فتناول غسطينو الحقيبة مـن العلّاقة ، وبحث فيها ثم سحب منها علبتين ، واراهما للولد بحركـة تعني : كم تريد منها ؟

أجاب الولد بحرية مستهترة :

– هات الاثنتين .

ونظر الى الماركة ، ثم طقّ بلسانه طقـة الخبير ، واضاف قائلاً :

– قل لي ، أثريٌ انت ؟

ولم يدرِ غسطينو بما يجيب . فاستطرد الولد :

– أنا أُدعى برتو ، وانت ؟

فذكر غسطينو اسمه ، ولكن الولد كان قـد صرف عنه انتباهه . فمزق غلاف احدى العلبتين بيد فارغة الصبر ،

وفتحها ، واخذ منها سيكارة ، ووضعها بين شفتيه واشعلها بعود من كبريت المطبخ تناوله من جيبه ، ثم عبَّ الدفعة الاولى من الدخان ، وهو يدنو بحذر وينظر الى الخارج من شق الباب .

وبعد قليل اشار الى غسطينو اشارة تعني : اتبعني ، وقال له : « تعال ! »

وخرج الاثنان من الحجرة واحداً بعد الآخر .

وعلى الشاطىء ، سار برتو على الطريق الواقعة وراء الحجرات . وبينما كان يمشي على الرمال المحرقة بين الشوك والوزّال قال :

– اننا ذاهبان الى المخبإ ، فقد مرّ رجال البوليس من هنا ، وهم يبحثون عني في مكان آخر .

وسأله غسطينو :

– أين هو المخبأ ؟

فأجاب برتو :

– في حمامات فيسبوتشي .

وكان يمسك بسيكارته ، بين اصبعيه ، مسكة المعتز بنفسه ، كما يمسك الناس بزهرة المرغريت لانتزاع وريقاتها ، ومن حين الى آخر كان يرفعها الى شفتيه ويعب منها

الدخان بشغف تضج فيه الشهوة . وبغتة سأل غسطينو قائلاً :

– ألا تدخن ؟

فأجاب غسطينو ، وقد خجل من أن فكرة التدخين لم تراود فكره قط ، قال :

– لا احب هذا .

فجعل برتو يضحك ، ثم قال :

– قل ان امك لا تسمح لك بالتدخين ...أليس كذلك؟

اطلق برتو هـذا القول دون رفق ، كأنه يتعمد التحقير ، ثم قدّم السيكارة الى غسطينو وامره قائلاً : « دخن ! »

وكانا قد بلغا الشارع المحاذي للشاطىء ، وهما يسيران حافيين على الحصى المسننة ، بين المصاطب الجافة ، فرفع غسطينو السيكارة الى شفتيه ونشق قليلاً من الدخان ، ثم لفظه بسرعة دون ان يبلعه .

فضحك برتو من جديد باحتقار أشد ، وصاح :

– أتسمي هذا تدخيناً ؟ ما هكذا مطلقاً يدخنون ... انظر .

واخذ السيكارة فعبّ منها الدخان طويلاً ، وهو يجول بعينيه الزرقاوين المصفرّتين جولاناً بطيئاً وحشياً ، ثم فتح

فمه ووضعه تحت انظار غسطينو . وكان ذلك الفم فارغاً ، رآه غسطينو بكل وضوح ، وكان اللسان فيه منتصباً الى سقف الحنك .

واغلق برتو فمه قائلاً :

– والآن ، انظر جيداً ...

ثم نفخ في وجهه سحابة من الدخان .

فسعل غسطينو قليلاً ، وضحك ضحكة عصبية ، بينما كان برتو يقول له : « جرّب الآن . »

ومر بهما قطار كهربائي يطلق صفيراً متقطعاً ، وقد تطايرت ستور نوافذه في الهواء ، فعبّ غسطينو نفساً جديداً من الدخان ، واستطاع هذه المرة ان يبلعه بجهد أليم ، ولكنه تضايق وراح يسعل سعالاً مؤلماً ، فانتزع برتو منه السيكارة ، ولكمه على ظهره لكمة شديدة وهو يقول له : « كفى ... انك مدخّن بارع ! »

ومشى الولدان صامتين . وكانت محالّ السباحة تتوالى الى جانب الطريق بحجراتها الزاهية الألوان ، ومظلاتها المائلة جانبياً ، وما فيها من اقواس النصر الغريبة الاشكال . وكان الشاطىء يبدو ، من بين الحجرات ، مزدحماً بالناس ، يرتفع منه طنين كجلبة العيد ، ويتلألأ وراءه البحر المكتظ بالسابحين .

وسأل غسطينو ، وهو يحث الخطى وراء صديقه الجديد :

– أين هي حمامات فيسبوتشي ؟

– انها الاخيرة ...

فجعل غسطينو يسائل نفسه أمن الافضل له ان يعود ادراجه ، فقد تكون امه جادّة في البحث عنه ، ان لم تكن قد ذهبت للقيام بنزهتها المعتادة . ولكن ذكرى الصفعة خنقت تلك الانتفاضة الاخيرة من وجدانه البنوي ، وتبادر الى ذهنه انه بذهابه مع برتو ينتقم انتقاماً له مبرراته .

وسأله برتو فجأة ، وهو يتوقف عن السير :

– أتعرف كيف تُخرج الدخان من أنفك ؟

فأجاب غسطينو سلباً بحركة من رأسه ، بينما راح برتو يشد بشفتيه على السيكارة التي أصبحت عقباً ، فيمتص الدخان ويخرجه من منخريه . ثم قال : « والآن ، سأخرج الدخان من عينيّ . ضع يدك على صدري ، وانظر الى وجهي جيداً . »

وكان غسطينو ساذَجاً لا يسيء الظن بالناس ، فدنا من برتو ، ووضع يده على صدره ، وجعل يحملق في عينيه ، وهو يوقن ان يسري الدخان خارجاً منها ، ولكن برتو

وضع نار السيكارة على يد غسطينو بحركة مفـاجئة لئيمة ، وضغط بشراسة ، ثم رمى العقـــب ، وراح يقفز فرحاً ويصيح :

– بالحقيقة ، انك أبله ، ليس بين الاغبياء من يجاريك حماقة .

اندفع غسطينو ، تحت تأثير الألم ، بانتفاضة عفوية ، وهجم على الولد ليضربه ، ولكن برتو جمـد في مكانه واضعاً قبضتيه على صدره ومتأهباً للقتال . فما كاد غسطينو يدنو منه حـتى قوبل بلكمتين شديدتين على معدته افقدتاه القدرة على التنفس .

وزمجر برتو :

– لا تغترّ بقدرتـك ... وستعرف طعم عضلاتي اذا شئت .

فانقضّ غسطينو عليه من جديد ، وقد اعماه الغيظ ، ولكنه احس أنـه ضعيف ، خائر القوى ، ولا مفر له من الهزيمة . فقبض برتو على رأسه ووضعه تحت ابطه ، وجعل يضغط عليه بلا هوادة ، فكاد غسطينو يختنق ، وعدل عن المقاومة ، وبصوت مختنق التمس الرحمة . فتركه برتو ، وقفز الى وراء ، ثم جمد متأهباً لخوض معركة جديدة . ولكن غسطينو كان قد أحس بان عظام رقبته

تكاد تتفكك ، وكانت دهشته تفوق آلامه ، فقد اذهلته شراسة ذلك الولد الغريبة . ولم يستطع ان يصدق بسهولة ان هناك من يتعمد إيلامه بمثل تلك الوحشية الخالية من الرفق ، وهو الذي ما رأى من الناس ، حتى ذلك الحين ، إلا العطف والمحبة . ارهبته تلك القساوة من حيث كونها ظاهرة جديدة كل الجدة ، حتى انها كادت تبدو له فاتنة باهرة لشدة ما فيها من الفظاعة ، فقال لبرتو بصوت متقطع :

– لم اسىء اليك ، لم اضربك ، بل اعطيتك سواكير ... أما انت ...

ولم يستطع ان يواصل الكلام ، اذ امتلأت عيناه بالدموع .

فقال برتو بسخرية لاذعة :

– ما بالك تبكي ؟ ... سواكيرك هذه ، اني بغنى عنها ... خذها وعد بها الى امك ...

فأجاب غسطينو بكآبة وهو يحرك رأسه رافضاً :

– لا ، قلت هذا من دون قصد . دعها معك ، انها لك .

قال الولد :

– تعال اذاً ، فقد وصلنا .

ورفع غسطينو يـده المحروقة الى شفتيه ، وهو يعاني ألماً مبرحاً ، ثم نظر الى ما كان حوله ، فرأى الشاطىء موحشاً كئيباً ، فيه حجرات قليلة ، متباعدة ، حقيرة ، من الخشب الأبيض ، وزوارق مستلقية على الرمـــال ، وبضع نسوة ، بعضهن واقف ، والبعض الآخر متمدد فوق الرمال ، في ثياب سباحـــة سوداء ، قديمة ، لها عرى بيض . وكانت اجساد النسوة تبدو ناصعة البياض كأنها لم ترَ الشمس من قبـل . وكان هناك قوس ازرق الدهان كتب عليه : « حمامات اميرغو فيسبوتشي » . وبعد هذه الحمامات كان الشاطىء مقفراً من الناس والحجرات والزوارق والبيوت ، يمتد الى اقصى الافق ، وتصفعه الرياح بـــين زرقة البحر المتلألئة ، واخضرار غابة الصنوبر المغبّر .

وكانت تلال الرمال في ذلك المكان اعـلى منها في الامكنة الاخرى ، تحجب عن الطريق جانباً من كوخ خشبي قائم هناك . وتسلق الولدان هذه التلال ، فبدت امامها خيمة مرتفعة ، بائخة ، لونهـــا احمر ضارب الى الشقرة ، ولا ريب انها مقتطعة من شراع عتيق . وكان اثنان من جوانبها مشدودين الى اوتاد مغروسة في الرمال ، والجانبان الآخران معلقين بالكوخ .

قال برتو : هذا هو المخبأ .

وكان في الخيمة رجل جالس الى جانب طاولة معوجّة القوائم ، يدخن سيكاراً ، وحوله ولدان أو ثلاثة مستلقون على الرمال . فركض برتو وانطرح على قدمي الرجل صائحاً :

– اصبتك .

وهذه الحركة هي من اصول لعبة « رجال البوليس واللصوص » التي كان يلعبها الاولاد ، فعلى كلٍ من اللصوص ان يصل الى الخيمة ويلمس ركبة الرجل قبل ان يراه رجال البوليس فيكون قد افلت من ايديهم .

ودنا غسطينو من الجماعة مرتبكاً . ولما أشار اليه برتو بسبابته قائلاً : « هوذا بيزا » ، تعجب كيف خُلعت عليه كنية ، وكان منذ خمس دقائق قد اخبر برتو انه وُلد في مدينة بيزا .

واستلقى غسطينو على الارض . ولم تكن الرمال ، في ذلك المكان ، نظيفة مثلها في الاماكن الاخرى ، بل كانت عليها قشور بطيخ وكسارة خشب وحطام فخار اخضر ، وقد تصلبت وغدت عليها قشرة كثيفة حيث كانت تُفرغ مياه الكوخ القذرة . أما الاولاد الذين كانوا منطرحين هناك – وهم اربعة – فقد لاحظ غسطينو انهم يرتدون اطماراً بالية ، مما يدل على انهم من ابناء

البحارة أو معلمي السباحة .

واستطرد برتو مكملاً حديثه ، بعد ان اشار الى غسطينو .

– كان في حمامات سبيرنزا ، فقال انه يريد هو ايضاً ان يلعب لعبة رجال البوليس واللصوص . ولكن اللعبة انتهت الآن ، أرأيت ، يا بيزا ؟ قلت لك ذلك من من قبل ...

وفي تلك اللحظة ارتفعت صيحات من جهة البحر : « ليس هذا من اصول اللعبة ، ليس هذا من اصول اللعبة ... » ورأى غسطينو جماعة اخرى من الاولاد اقبلوا راكضين . انهم ، ولا ريب ، رجال البوليس ، وعلى رأسهم فتى قويّ البنية ، قد يكون تجاوز السابعة عشرة من عمره ، ربعة القامة ، وما عليه إلا مايو . ودُهش غسطينو لما رأى وراء هذا الفتى ولداً زنجياً ، ثم ولداً اشقر ، يبدو بشكله وجمال جسده كأنه من غير طبقة الآخرين . ولكن لما اقترب ، تبين من المايو الممزق الذي عليه ، ومن بعض الملامح المبتذلة في وجهه الجميل ، وعلى الرغم من عينيه الزرقاوين الواسعتين ، انه هو ايضاً من طبقة شعبية مغمورة . وخلف هذه الطليعة ، جاء أربعة اولاد تراوح اعمارهم بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة

من العمر . وكان الفتى القوي ، المتين البنية ، السائر قدامهم ، اكبر منهم سناً بكثير ، حتى ان وجوده بين اولئك الاولاد كان يدعو الى العجب للوهلة الاولى . ولكن لون وجهه الكالح كالخبز غير الناضج ، وامارات الغلاظة الوحشية البادية في قسمات ذلك الوجه ، كانت كافية لتفسير وجوده في تلك الجماعة . وكان رأسه مرتكزاً بين كتفيه كأن لا عنق له ، وليس في صدره وظهره شعرة واحدة ، وقد تساوى جسمه ضخامة من كتفيه الى خصره . وما إن وصل حتى انتهر برتو صائحاً بغضب :

– أنت اختبأت في حجرة ... أتستطيع ان تزعم غير ما اقول ؟ فليس هذا من اصول اللعبة ...

فأجاب برتو باللهجة نفسها من العنف :

– هذا غير صحيح .

ثم استطرد موجهاً كلامه الى غسطينو :

– قل له ، يا بيزا ، اننا كنا معاً وراء اكواخ حمامات سبيرنزا ، ورأيناكم تمرون ... أليس كذلك ، يا بيزا ؟

ولم يستطع غسطينو ان يكذب ، فقال :

– بلى ، كنتَ مختبئاً بالحجرة .

فزمجر الفتى الضخم وهو يهز قبضته في وجه برتو :

– أسمعت ، يا هذا ؟ ساحطم فكيك ، يا كذّاب .

فصرخ برتو في وجه غسطينو :

– جاسوس ، واشٍ ... أما قلت لك ان تبقى في حضن امك ؟ هيّا ... عد اليها .

وكان يرتجف غضباً وقد فاض غيظه فيضاً ابتهج به غسطينو في اعماقه . وبينما كان برتو يقوم بحركات عنيفة للتعبير عن استيائه ، وقعت من جيبه احدى علبتي السواكير ، فكاد يلمها لو لم ينقض كبير العصابة ويقبض عليها ، ثم جعل يهزها فوق رأسه ظافراً وهو يصيح : « سواكير ... سواكير ... »

فصرخ برتو هاجماً عليه :

– اعدها اليّ ... انها لي ... بيزا اعطاني اياها ... اعدها اليّ وإلا ...

فقفز رفيق برتو الى وراء واضعاً العلبة بين اسنانه ، ولما أصبح برتو في متناوله ، انهال لكماً على معدته ، ثم فركشه برجله فطرحه ارضاً . فصاح برتو من جديد وهو يتقلّب على الرمال : « اعدها الي ! » فأجابه مرسلاً ضحكة مفرقعة : « معه غيرها ... الى الامام يا اولاد ... » وبحركة جماعية اذهلت غسطينو ، انقض الاولاد جميعاً على برتو ، فجرت على قدمي الرجل معمعة تقلبت فيها

اجساد الاولاد في غمامة من الغبار ، والرجـــل يواصل تدخينه في هـدوء الى جانب طاولته العرجـاء . واخيراً خرج الاشقر الكبير ، الذي كان يبدو امهرهم حركةً ، من الاشتباك ، ووقف يهز منتصراً علبة السواكير الثانية ، ثم نهض الباقون واحداً بعـد الآخر ، وكان برتو آخرهم ، فوقف متدمّر الوجـه حنقاً وهو يزمجر : « انجاس ... لصوص ... » وبكى وهو يهـز قبضته مهدداً . ثم راح يشهق من شدة الغيظ . فاحدث ذلك المشهد تأثيراً عميقاً في نفـس غسطينو الذي رأى معذبه يُعذَّب ، وبالقساوة نفسها التي عومل بها هو منذ قليل . ولما كان برتو يواصل صياحه : « انجـــاس ... انجاس ... » رجع اليه الفتى القوي وصفعه على وجهه صفعة مدوّية جعلت الاولاد جميعاً يقفزون فرحين .

وصاح الفتى منتهراً برتو :

— أتقفل فاك ، ام ماذا ؟

فركض برتو ، كأنه فقد رشاده ، الى زاوية الكوخ ، وانحنى على الارض ، ولمّ حجراً كبيراً قذف به عدوه الذي انحرف مرسلاً صفيراً ساخراً ، بينما كان برتو يصيح : « انجاس ! » إلا انه ظل حذراً ومحتمياً بالكوخ . وكان يبكي مرسلاً شهيقه عالياً كأنه يذرف مع دموعه ، بغضب

مفرط ، مرارة خاصة ، مقرفة ، من النوع السافل المنحطّ . ولكن رفقاءه كانوا قد صرفوا عنه اهتمامهم ، وتمددوا جميعاً على الرمال . ففتح الفتى الاشقر احدى العلبتين ، وفتح القوي العلبة الاخرى . وفجأة تكلم الرجل الذي كان قد شهد العراك دون ان يتحرك ، فقال :

– اعطوني هذه السواكير .

ونظر اليه غسطينو ، فاذا هو ضخم الجثة ، سمين ، في الخمسين من العمر تقريباً ، في وجهه لؤم ورياء تحت نقاب شفاف من مظاهر الطيبة الهادئة . وكان اصلع ، وجمجمته غريبة التكوين ، تشبه بتقعّرها مرج الفرس . وعيناه صغيرتان تطرفان دون انقطاع . وانفه اقنى ، محمر . ومنخراه واسعان تنفر فيهما اخيطة دموية قانية الاحمرار تبعث الاشمئزاز . وتحت شاربيه المنحدرين ، كان فمه الملتوي قليلاً يعض سيكاراً . وكان يرتدي قميصاً بائخاً وبنطلوناً قطنياً ازرق اللون ، تنحدر احدى ساقيه الى كعب الرجل ، وترتفع الاخرى الى ما فوق الركبة . وكان خصره مشدوداً بقطعة عريضة من القماش الاسود .

كان هذا الرجل معلم سباحة ، يدعى سـ..و ، ومن ابرز ميزاته التي ضاعفت اشمئزاز غسطينو وقرفه ان لكلّ من يديه ست اصابع ضخمة ، قصيرة ، تبدو في قباحتها

وكثرتها كأنها اصابع اخطبوط .

وعبثاً تفحص غسطينو بنظره تينك اليدين ، فما استطاع ان يعلم هل لكل منهما سبابتان ، ام وُسْطَيَان ، ام بنصران ، فجميع الأصابع كانت تبدو متساوية طولاً ، ما عدا الخنصر ، فقد كان معقوفاً صوب الخارج كغصن صغير نابت في اسفل جذع ضخم كثير العقد .

ورفع سارو من فمه ما تبقى من سيكاره ، وقال بمنتهى البساطة :

– إيه ! ... أين هي السواكير ؟

فنهض الفتى الاشقر ، ووضع علبته على الطاولة الصغيرة .

فقال سارو :

– حسناً ، يا سندرو .

وصاح الفتى القوي بلهجة متحدية :

– واذا ابيتُ ان اعطيك علبتي ؟

فارتفعت الاصوات من كل جانب :

– اعطه اياها ، يا تورتيا ، هذا افضل لك ...

فاجال تورتيا نظرة حوله ، وتطلع الى سارو الذي كان قد بسط يده واضعاً اصابعه الست على علبة السواكير ، وجعل يحدق اليه بامعان وبعينين شبه مغمضتين . وبعد

قليل قال تورتيا : « حسناً ، سأعطيه اياها ، ولكن ليس هذا من الانصاف في شيء . » ونهض بدوره ، فوضع علبته على الطاولة .

قال سارو بصوت هادىء ناعم :

– الآن ، نباشر القسمة .

ومن غير ان ينتزع السيكار من فمه ، فتح احدى العلبتين وهو يغضّن جفونه ، وتناول سيكارة باصابعه العديدة التي كانت تبدو عاجزة عن القبض على شيء ما ، ورماها للزنجي قائلاً :

– خذ يا همس ...

واخذ سيكارة ثانية فرماها الى ولد آخر ، ثم طارت ثالثة لتقع بين يدي سندرو ، وسقطت رابعة على وجه تورتيا المتجسدة فيه البلاهة ، وهكذا دواليك .

ثم توجه سارو الى برتو وسأله :

– أتريد واحدة ؟

وكان برتو قد كفكف دموعه ، وجاء ينطرح على الارض بين الآخرين دون ان يفوه بكلمة ، فحرّك رأسه ايجاباً ، وهو مقهور بذله الكدر ، فطارت اليه سيكارة من يد سارو . ولما حصل كلٌّ من الاولاد على سيكارته همّ الرجل باغلاق العلبة ، وهي ما تزال نصف ممتلئة ،

ولكنه تنبه وسأل غسطينو : « وانت ، يا بـــيزا ، أتريد واحدة ؟ » وكان غسطينو يودّ ان يرفض ، ولكن برتو لكمه في خاصرته هامساً : « خذها ، يا احمق ... فندخنها معاً بعد قليل . » فأجاب غسطينو بنعم ، ونال هو الآخر سيكارته . ثم اغلق سارو العلبة .

وصاح الاولاد معاً من كل جانب : والبقية ... البقية .

فأجاب سارو بهدوء :

– البقية يجري توزيعها مرة اخرى .

وخاطب غسطينو قائلاً :

– خذ ، يا بيزا ، هذه السواكير وضعها في الكوخ ...

ولم يفه أحد بكلمة . فأخـــذ غسطينو العلبتين وهو مرتبك ، وفشخ فوق الاولاد ، ثم توجـــه الى الكوخ ودخله .

وكان الكوخ غرفة واحدة ، فوجده غسطينو صغيراً ، واحبه لأنـــه يشبه أكواخ الحكايات بسقفه المنخفض ، وعوارضه المطروشه بالكلس ، وجدرانه المصنوعة مـــن الخشب الابيض . وكانت له نافذتان في غاية الصغر ، إلا انها كاملتـــان بحافتيها ، وألواحها الزجاجية المربعـــة ، ودرفاتها ، وستاريها ، وحتى بمـــا عليها مـــن احواض الازهار ، فـــكان ينساب منها الى الداخل نور معتدل .

وفي احدى الجنبات رأى غسطينو سريراً مرتباً بعناية عليه مخدة بيضاء نظيفة ، وغطـــاء احمر ، كما رأى في زاوية اخرى طاولة مستديرة وثلاثـة كراسي . وكانت هناك خزانة صغيرة ذات غطاء من الرخام عليها قنينتان من تلك القناني التي تحتوي مراكب صغيرة شراعية او بخارية . أما الجدران فكانت مكسوة باشرعة معلقة بمسامير ، وبمجاذيف وادوات بحرية اخرى . ففكر غسطينو بان من يملك مثل هذا الكوخ الصغير المرتب يستطيع ان يعتبر نفسه كبير الحـظ ويستحق ان يحسده الناس . ودنا من طاولة عليها قصعة فخارية مثلـّمة ممتلئـــة بسيكارات نصفها مدخّن ، ووضع عليها علبتي السواكير ، ثم عـاد الى الهواء الطلق والنور الذي يبهر الانظار .

وكان الاولاد متمدّدين جميعاً على بطونهم حول سارو ، يدخنون بحركات تدل على المتعة والانشراح ، ويتناقشون . ولم يدرك غسطينو في البدء موضوع نقاشهم .

وتكلم سندرو فقال مؤكداً قولاً سابقاً :

— وأنا اقول لك انه هو .

وارتفع صوت يقول ، وفيه كل معاني الاعجاب :

— امه غادة حسناء ، اجمـل غادة على الشاطىء ...

ذهبنا يوماً ، انا وهمس ، واختبأنا تحت حجرتها لنراها تخلع ثيابها ، ولكن ثوباً سقط على عيوننا ، فما رأينا شيئاً ... لها ساقان ولا احلى ؛ أما نهداها ، فحدّث بجمالها ولا حرج ...

ولاحظ آخر قائلاً :

– ولكننا لا نرى زوجها مطلقاً .

– لا تخف عليها ... انها تعرف كيف تتعزّى ... ألا تدري مع من ؟ مع صاحب فيلّا سوريستّو ... شاب اسمر ... يأتي اليها كل يوم ، ويأخذها في زورقه .

وعلّق صوت خبيث بقوله :

– لو لم يكن هناك إلا واحد لهان الأمر ... السابق اليها صاحب الحظ بها ...

وقال احدهم بصوت تدل لهجته على الاصرار :

– نعم ، ولكن هذا ليس ابنها .

فتوجه سندرو فجأة الى غسطينو وقال له بلهجة الامر :

– قل ، يا بيزا ، أليست امك هذه السيدة التي تأتي الى حمامات سبيرنزا ؟ وهي ممشوقة ، سمراء ، طويلة الساقين ... ترتدي مايو مخططاً ، ولها شامة الى الجهة اليسرى ، بالقرب من فمها ؟

فأجاب غسطينو متضايقاً :

– بلى ، ولِمَ تسأل ؟

فصاح برتو صيحة المنتصر :

– انه هو ... انه هو ...

واستطرد مدفوعاً بموجة من الحسد :

– وانت تحمل الشمعة عندما تذهب واياها الى البحر مع زبونها ؟

وتلت تلك الكلمات قهقهة عامة ، حتى ان سارو نفسه ابتسم من تحت شاربيه .

قال غسطينو وهو مرتبك وقد احمر وجهه دون ان يفهم :

– لا أدري ما تعنون بهذا القول .

واحس انه كان عليه ان يحتج ، ولكن ذلك المزاح الفظ السفيه أيقظ في نفسه شعوراً غير منتظر ، يكاد يكون ضارياً بما فيه من الارتياح والشماتة ، كأنه وجد في آراء اولئك الاوشاب الجهلة ما ينتقم له من امه ، لِما انزلت به من ضروب التحقير والاذلال في الآونة الاخيرة . وشلّه الذهول عندما رأى ان العصابة كلها مطلعة على شؤونه الخاصة .

وقال صوتٌ خبيث متهكم :

– يا لك من وسيط طيب ! ...

وتكلم تورتيا مخاطباً غسطينو بجد ينضح بالخبث :

– من يدري ما يفعلان ؟ انهما يذهبان بعيداً في البحر ... قل ، يا بيزا ، قل لي ما يفعلان ... انه يعانقها ويقبلها ، ايه ؟

قال هذا ووضع يده على فمه ، وقبّلها قبلة مفرقعة .

فأجاب غسطينو محمراً من فرط الخجل :

– انها يذهبان الى عرض البحر للاستحمام هناك وحسب ...

فارتفعت الاصوات ساخرة من كل جانب :

– ها ... ها ... للاستحمام !

– امي تستحم ، ورنزو ايضاً ...

فقال أحد الاولاد مؤكداً كأنه تذكر شيئاً كان منسياً :

– اجل ، اسمه رنزو ، انه شاب طويل ، اسمر .

وكان برتو قد استعاد ثقته بنفسه ، فسأل غسطينو فجأة :

– رنزو وامك ، ماذا يفعلان ؟ يفعلان هذا (وقام بحركة قوية التعبير) ، وانت تنظر اليهما يعملان ، إيه ؟

اجاب غسطينو : انا ؟

واجال حوله نظرات شاردة من شدة الجزع .

فضحك الجميع ، وجعلوا يخنقون ضحكاتهم في الرمال ، إلا سارو ، فقد ظل وحده يراقب غسطينو بانتباه ، دون ان يتحرك ، ودون ان يقول كلمة . فنظر اليه الولد المروّع نظرة يائسة كأنه يلتمس منه المساعدة .

فبدا سارو كأنه فهم نداء الاستغاثة ، ورفع سيكاره من فمه ، وقال :

– ولكنكم ترون انه لا يعرف شيئاً !

فحلّ محل الجلبة صمت شامل ، ثم سأل تورتيا متعجباً :

– كيف لا يعرف شيئاً ؟

اجاب سارو ببساطة :

– لا ، لا يعرف شيئاً .

ثم استدار الى غسطينو وقال له بصوت أراد ان يجعله ناعماً حنوناً :

– قل لي ، يا بيزا ، رجل وامرأة ، ماذا يعملان معاً ؟

فسكت الجميع كأنهم يحبسون انفاسهم بانتظار الجواب .

ونظر غسطينو الى سارو الذي كان مغمض الجفون نصف اغماضة وهو يحدق الى الولد مدخناً ، ثم نظر الى الاولاد الذين بدوا كأنهم منتفخين بضحكات يحاولون خنقها ، وردّد آلياً وقد غشي بصره كأن غيمة سوداء

هبطت عليه : « رجل وامرأة ! »

فقال برتو موضحاً :

– نعم ، امك ورنزو .

وكان غسطينو يود ان يجيب : « لا تتكلموا على امي » ، ولكن ذلك السؤال حرّك في اعماقه كومة مبهمة من الأحاسيس والذكريات اذهلته ، فارتج عليه الكلام . وتدخل سارو فوضع حداً لهذا الجدال اذ قال وهو ينقل سيكاره في فمه من جانب الى جانب : « انه لا يعلم شيئاً ، فمن منكم يريد ان يعلّمه ؟ »

نظر غسطينو الى ما حوله مشرّد اللب ، فقد حسب نفسه في المدرسة ، ولكن ، يا له من معلم !... ويا لهم من تلاميذ !... واخذ الاولاد يصيحون جميعاً : « انا ... انا ... انا ... »

استعرض سارو تلك الوجوه المحتدمة بنار المنافسة الحماسية ، ملقياً عليها نظرة حائرة ، ثم اعلن :

– انتم ايضاً لا تعرفون شيئاً ، كل ما لديكم انكم سمعتم احاديث عابرة عن هذا الامر ، ان الكلام لمن يعرف معرفة حقيقية .

ورأى غسطينو الاولاد يتبادلون النظرات ويلزمون الصمت ، ثم ارتفع صوت قائلاً : « تورتيا ... » فلمعت بارقة

من المباهاة والغرور على وجه الفتى القوي ، وتظاهر بانه يهمّ بالنهوض ، ولكـــن برتو الذي كانت نفسه تفيض حقداً صرخ :

– لا شيء من اخباره صحيح ، انه يتبجح ...

فزمجر تورتيا وهو ينقض على برتو :

– كيف تقول لا شيء صحيح ؟ انت كذّاب يا سافل !

ولكن برتو ، هذه المرة ، أسرع بالابتعاد عن الفـتى القوي ، وأطـل من وراء الكوخ بوجهه المطروش بالبقع الشقر الكالحة ، ومدّ لسانه معبراً عـن سخريته بحركات وجهه الماجنة القبيحة . وراح تورتيا يهدده بقبضته وهو يهدر : « الافضل لك ان تبقى حيث انت ... وإلا ... » ولكن غضبه لم يحل دون صرف النظر عن ترشيحه للقيام بمهمة المعلم ، على اثر ذلك التدخل المباغت من قبل برتو .

وصرخ الاولاد بصوت واحد :

– سندرو ، ليعلمه سندرو ... سندرو ...

ومشى سندرو حتى توسط الاولاد المستلقين على الارض ، وهو فتى جميل الوجه ، فارع القامة ، مكتوف الذراعين على صدره الواسع حيث تلمع شعرات شقر قليلة كأنها خيوط من الذهب . ولاحـظ غسطينو ان ساقي الفتى قويتان ، ومسمّرتان كأن عليهما غباراً ذهبياً . وعند اربيتيه ، بدت

شعرات شقر من ثقوب لباس السباحة الاحمر .

وشرع سندرو يلقي محاضرته قائلاً :

ـ المسألة في غاية البساطة ...

ثم جعل يتكلم بهدوء ، وعلى مهل ، معززاً كلامه بالحركات الملائمة غير المبتذلة ، وشرح لغسطينو ما كان هذا يظن انه يعرفه منذ القدم ، وانه نسيه في ما يشبه السبات العميق . واتبع سندرو شرحه بحركات تفسيرية اقل ترتيباً وانضباطاً . وكان بعض الاولاد ، في هذه الاثناء ، يقومون بحركات سافلة قذرة ، والبعض الآخر يفوه بكلمات بذيئة وجديدة على اذني غسطينو . وصرخ اثنان قائلين لسندرو : « أرِه كيف يعملان ... » ثم انطرحا على الرمال المحرقة ، وراحا يتخبطان في عناق اهوج ، وكلٌ منهما ملتصق بالآخر التصاقاً لا يترك مجالاً للالتباس في ما يعملان ... وانسحب سندرو من الحلبة مبتهجاً بما احرز من نجاح ، فانزوى على حدة ليفرغ على مهل من تدخين سيكارته .

ولما خمدت الجلبة خاطب سندرو غسطينو قائلاً :

ـ أفهمت الآن ؟

فحرك غسطينو رأسه ايجاباً . والحقيقة انه لم يدرك هذا المفهوم بعقله ، انما ابتلعه مكرهاً كما يبتلع دواء مراً

أو سماً نقيعاً . ان نتيجة هــذا الفهم لا تظهر فوراً ، ولكن ما تورثه من الآلام أو التسكين يأتي حتماً في ما بعد . ان ما فهمه غسطينو في تلك الساعة لم يدخل الى عقله الفارغ ، المتألم ، الذاهل ، بل دخل الى ناحية اخرى من كيانه ، الى قلبه الزاخر بالمرارة ، الى اعماق صدره الذي استولت عليه الدهشة حين تلقى هذه المعرفة . كانت هذه الحقيقة شبيهة بشيء متألق ، لا يستطيع المرء النظر اليه لقوة النور الباهر المتدفق منه ، ولا يتمكن الناظر من تبيّنَ شكله إلا بصعوبة كلية . لقد خيّل اليه انه كان يملك هذا الشيء منذ امد بعيد ، ولكن دون ان يشعر بوجوده في كل قطرة من دمائه كما يشعر به الآن .

وسمع ولداً يقول وراءه :

– رنزو وام بيزا ، انا رنزو وانت ام بيزا .

فاستدار فجأة ورأى برتو يقوم بحركات تمثيلية ساخرة ، ويتظاهر بنوع من الاحترام اشد سخرية ، وهو ينحني أمام احد الاولاد قائلاً :

– سيدتي ... أتجودين عــليّ بنزهــة ... الزورق ينتظر ... هيا بنا نسبح ... ولتأتِ بيزا معنا ...

فاستولى على غسطينو غضب شديد افقده صوابــه ، فانقض عــلى برتو صائحاً : « لا اسمح لك بالتحدث عن

امي » ، ولكن قبل ان يدرك ما حل به ، وجد نفسه منطرحاً على الارض ، وركبتا برتو على صدره تسمّرانه بالرمال ، واللكمات تنهال على وجهه كالمطر . وكاد يبكي ، إلا انه احس ان دموعه ستطلق عاصفة جديدة من الهزء والسخرية ، فتجلـّد ، وحمى وجهه باحد ساعديه ، وامتنع عن الاتيان باقل حركة كأنه جثة هامدة . وما عتم برتو ان تركه ، فنهض بحال مؤسفة ، وجاء يجلس عند قدمي سارو . وفي تلك الاثناء كان الاولاد يتحدثون بحرارة عن اشياء اخرى . وبغتة توجه احدهم الى غسطينو وسأله : « هل انتم اغنياء ؟ »

وكان غسطينو قد بلغ حـداً من الذعر اصبح معه لا يعلم ما يقول ، إلا انه اجاب : « اظن اننا اغنياء . »

— كم تملكون ؟ مليوناً ... مليونين ... ثلاثة ؟

فاجاب غسطينو مرتبكاً :

— لا ادري .

— هل عندكم بيت كبير ؟

— نعم .

قال غسطينو هذا مستأنساً بالطابع اللطيف الذي اتخذه الحديث ، ولم يستطع مقاومة شعوره بالاعتزاز ، فاستطرد قائلاً : « في بيتنا عشرون غرفة . »

فارتفع صوتٌ في نبراته كل معاني الاعجاب وردّد :
« عشرون غرفة ! »
وقال آخر : « عظـيم ! » إلا ان لهجته كانت تدل
على الشك . فقال غسطينو :
– عندنا صالونان ، ثم هناك مكتب ابي ...
فقال احدهم : مكتب ذي القرنين ...
فاستدرك غسطينو قائلاً :
– عنيت ان هذا المكتب كان لابي ، ولكن ابي
مات .
وظن ان هذه التفاصيل تكسبه عطف الاولاد .
وساد الصمت برهة . ثم سأله تورتيا :
– امك ارملة اذاً ؟
فارتفعت اصوات متهكمة من كل جانب وهي تقول :
– طبعاً ، ارملة .
فدافع تورتيا عن نفسه قائلاً :
– وبعد ؟ كان بوسعها ان تتزوج مرة ثانية !؟
فأجاب غسطينو :
– ولكنها لم تتزوج مرة ثانية .
وسأله آخر : وهل عندكم سيارة ؟
– نعم .

– وسائق ؟

– نعم .

فصاح أحدهم :

– قل لامك اني مستعد ان اكون سائق سيارتها .

وسأل تورتيا ، وقد بدا عليه انه اشد تأثراً من الآخرين باخبار غسطينو :

– وماذا تعملون بالصالونين ؟ أتقيمون فيهما حفلات راقصة ؟

أجاب غسطينو : نعم ، امي تستقبل ضيوفاً .

فقال تورتيا كأنه يخاطب نفسه : كم من النساء الجميلات يلتقين هناك ؟... ثم سأل : وكم من الناس تستقبلون ؟

– لا ادري .

– كم ؟

– عشرين ، ثلاثين .

قال ذلك باطمئنان ، وقد خامره شعور بالفخر لما احرز من النجاح .

– عشرين ، ثلاثين ... وماذا يعملون ؟

فأجاب برتو هازئاً :

– وماذا تريد ان يعملوا ؟ يرقصون ، يتسلّون ... انهم اغنياء ، لا فقراء مثلنا ... انهم ينعمون بالحب

والغرام .

فصحح غسطينو قائلا :

– لا ، لا حب ، ولا غرام .

واراد بهذا التصحيح ان يُفهم الاولاد انه اصبح يعرف معنى هذه العبارة .

وكان تورتيا مرتبكاً كأنه يصارع فكرة لا يستطيع التعبير عنها ، ثم قال :

– ولو جئت انا ، هكذا ، من دون مقدمات ، الى احدى هذه الحفلات وقلت : « ها انا ذا » ، فماذا تعمل ؟

قال هذا قارناً الكلام بالحركة ، فوقف معرّضاً صدره ، واضعاً يديه على ردفيه ، متخذاً مظهر شخصية كبيرة تدخل حفلة اقيمت تكريماً لها .

فانفجر الاولاد جميعاً ضاحكين .

وأجاب غسطينو بكل بساطة ، وقد شجّعه ضحك الاولاد :

– اطلب اليك ان تذهب في سبيلك .

– واذا لم أشأ الذهاب ؟

– اشير الى الخدم بطردك .

وسأل احدهم : وهل عندكم خدم ؟

– لا ، ولكن امي تستأجرهم حين يكون عندنا

استقبال .

فخاطب أحد الاولاد رفيقاً له قائلاً :

– هؤلاء الخدم مثل ابيك .

وعاد تورتيا الى حديثه باصرار ، فدنا من غسطينو وجعل يهز قبضته تحت انفه كأنه يشمّمه رائحتها وهو يقول :

– واذا تمردتُ على الخدم ... واذا حطمت رؤوسهم ، ودخلت الصالون عنوةً ، ووقفت في وسطه صائحاً : « انتم جميعاً عصابة سافلات وسفلة » ، فماذا تقول ؟

ولكن جميع الاولاد احتجوا هذه المرة على تورتيا ، لا لأنهم عطفوا على غسطينو ، بل لرغبتهم في معرفة المزيد من تفاصيل ذلك الثراء العريض الذي يثير خيالهم .

وارتفعت الاصوات من كل صوب :

– دعه من غلاظتك ... انهم يطرحونك خارجاً بارجلهم ، وحسناً يفعلون ...

وقال برتو باحتقار : ابوك نوتي ... وستكون نوتياً انت ايضاً ... واذا ذهبت الى بيت بيزا ، فلن تكون هناك مستقويا يتحدى ...

وقفز واقفاً ، وراح يمثل حركات التزلف والتذلل التي افترض ان تورتيا يقوم بها حين يزور بيت غسطينو ، ويقول :

– معذرة ! أهنا يقطن السيد بـيزا ؟ معذرة ... جئت ... ولكن ، لا بأس ... اني ذاهب الآن ... وسأعود ، اعذروني ، لأني ازعجتكم .

وعاد الى لهجته الطبيعية قائلاً :

– اجل ، اني أراك ، يا تورتيا ، من هنا تنحني احتراماً ، وتظل تنحني حتى تبلغ اسفل السلم .

وكان الاولاد جميعاً يضحكون . أما تورتيا الغبي بقدر ما هو شرس ، فلم يجرؤ على تحدي الضاحكين . إلا انه حاول ان يستعيد المبادرة مهما كلفه الأمر ، فسأل غسطينو :

– أتحسن المكامشة بالساعد ؟

فأجاب غسطينو مستفهماً :

– وما المكامشة بالساعد ؟

وارتفعت اصوات هازئة تقول :

– انه لا يعرف ما هي المكامشة .

ودنا سندرو من غسطينو ، فأخذ ذراعه وطواها رافعاً اليد الى فوق ، وغارساً المرفق في الرمل . وفي هذه الاثناء كان تورتيا قد انبطح على الارض وذراعه في الوضع نفسه . فقال سندرو لغسطينو : « يجب ان تشد الى جهتك ، وتورتيا يشدّ الى جهته . »

وتناول غسطينو يد تورتيا ، فغلبه هـــذا بسرعة ، دفعة واحدة ، ونهض منتصراً .

وقـال برتو : « جـاء دوري ! » ثم غلب غسطينو بالسهولة نفسهـا . وارتفعت الاصوات : « دوري ... » ، « دوري ... » فغلبوا غسطينو واحداً بعد الآخر . وفي النهاية جاء دور الزنجي ، فقال احدهم لغسطينو : « اذا غلبك همس ، تكون ذراعك من خيوط القطن . »

فقرر غسطينو ان لا يغلبه الزنجي ، على الاقل .

وكانت ذراعا الزنجي نحيلتين ، وسوداوين بلون اللبن المحمص . وكان غسطينو يظن ان ذراعيه اقوى .

وتمدد الزنجي قبالته ، وهو يقول بعجرفة بلهـاء : « هيا بنا ، يا بيزا ! » وكان صوتـه خالياً من العزم ، كأنه صوت فتاة . ولما اصبح وجهاهما متقاربين ، لاحظ غسطينو ان انـف الزنجي لم يكن فطس كما كان يظن ، بل اقنى ، ومنطوياً على ذاته كحلقة من اللحم الدهني الاسود ، وعلى احـــد منخريه شـــامة اقل سواداً ، تكاد تكون صفراء . وفمـه لم يكن مبرطماً كأفواه الزنوج ، بل دقيقاً ولونه ضارب الى البنفسجي . وكانت عيناه مستديرتين ، بيضوين ، فوقهما جبهة محدّبـة عليها جزة عالية من الشعر بلون سخام الدخان . وقال همس ،

وهو يشبك بيد غسطينو يده النحيفة السوداء الاصابع ، الزهرية الاظافر : « هيا بنا ، يا بيزا ، فلن أكون قاسياً عليك ... » وكان غسطينو قد لاحظ انه اذا شد قليلاً بكتفه يستطيع ان يلقي بثقل جسمه في المعركة دون ان يلاحظ أحد شيئاً . وكانت هـــذه الحيلة البسيطة كافية لتساعده ، في بـــدء الصراع ، على مقاومة الجهد الذي بذله همس . ومضت فترة ، والولدان لا يغلب أحدهما الآخر ، وقد تحلـّق الاولاد حولهما وكلهم انتباه بانتظار النتيجة . وكان وجه غسطينو متوتراً ، جامداً ، لا يتغير ، وقـــد انقبض جسمه متقلصاً بقوة الجهد المبذول ، بيـنما كان الزنجي مكشراً تكشيرة كشفت عـــن اسنانه البيض ، وغضـّنت جفونه .

وصرخ احدهم متعجباً : « انتصر بيزا ! » وفي تلك اللحظة احسّ غسطينو بألم شديد يتغلغل في كتفه وذراعه ، ثم خارت قواه ، فارخى يــده قائــلاً : « لا ، انه اقوى مني ... »

فنهض الزنجي وهو يقول بتأدبه المصطنع الكريه : في المرة القادمة تكون لك الغلبة ولا شك !

وقال له تورتيا باحتقار : حتى همس غلبك ... انك

خرقة خالية من الاعصاب .

وفي هذه الاثناء كان الاولاد قـــد شبعوا من تحقير غسطينو والهزء به ، فقال احدهم : « هيا بنا الى البحر » ، وهتف الآخرون : « نعم ، نعم ... الى البحر ... الى البحر ... » وراحوا يركضون ويقفزون على رمال الشاطىء المحرقة . وكان غسطينو يتبعهم من بعيد ، فرآهم يغطسون في الماء واحداً بعد الآخر كالاسماك ، في غمرة من الرشاش والزبد وصياح المرح والسرور . ولمـا وصل الى حافـــة البحر ، ظهر تورتيا من تحت المـاء كالحيوان ، اطل اولاً اسفله ، ثم رأسه ، وصاح بغسطينو :

– اغطس يا بيزا ، ماذا تنتظر ؟

اجاب غسطينو : لم اخلع ثيابي بعد .

فاجابه تورتيا بشراسة شريرة : انا اعريك من ثيابك .

وحاول غسطينو ان يهرب ، فما وجد متسعاً مـــن الوقت . فقبض تورتيا عليه ، وجرّه بالقوة الى البحر ، وغطس معه جاعلاً رأسه تحت المـاء حتى كاد يخنقه ، ثم تركه وابتعد عنه سابحاً وهو يقول :

– الى اللقاء ، يا بيزا .

وعلى مقربة من هناك ، كان سندرو واقفاً على زورق ، يحركه ببراعة واناقة ، بين الاولاد المتصايحين حوله ، وهم

يحاولون الصعود اليه .

وخرج غسطينو الى البر مبللاً ، لاهثاً ، فجعل ينظر الى الزورق المبتعد في البحر المقفر تحت وهج الشمس الباهر ، ثم حث خطاه على الرمال اللماعة متوجهاً الى حمامات سبيرنزا .

٣

لم يصل متأخراً ، كما كان يخشى . ولما بلغ الحمامات تبين له ان امه لم ترجع من رحلتها بعد . وكان الشاطىء يفرغ تدريجياً من الناس ، ولم يبق هناك إلا نفر قليل من السابحين في بحر يلتمع متألقاً تحت اشعة الشمس . واخذ الناس يسيرون خطاً طويلاً على الدرب المختصر المرصوف بالخشب والمؤدي الى الطريق العامة ، وهم متعبون ، وقد ارهقهم الحر . فجلس غسطينو تحت المظلة ينتظر . وبدا له ان نزهة امه استطالت اكثر من المعتاد ، وتذكر انها ما ارادت القيام بهذه النزهة من دونه ، وانه هو الذي توارى عن الانظار ، وقال في نفسه ان امه وصديقها قد اغتنما ، ولا ريب ، فرصة غيابه ، ليعملا ما تندّر به سارو والاولاد .

ولم يشعر حيال هذا التفكير باقل غيرة ، بل شعر برعشة جديدة غريبة فيها نوع من التواطؤ والفضول والموافقة الغامضة . فقد كان من الطبيعي ان تذهب امه

مع الشاب كل يوم في الزورق لتستسلم اليه في عناق طويل بين السماء والبحر ، بعيداً عن الانظار الفضّاحة . اجل ، كان ذلك طبيعياً ، فقد اصبح غسطينو قادراً الآن على ادراك هذه الحقيقة .

وبينما كان مسترسلاً في تفكيره ، ظل يراقب البحر بعناية باحثاً عن العاشقين .

واخيراً أطلّ الزورق الابيض . بدا اولاً نقطة ناصعة على رحاب المياه المقفرة ، ثم جعل يقترب بسرعة ، فاستطاع غسطينو ان يرى امه جالسة على البنك والشاب يجذف . وكان المجذافان يرتفعان وينخفضان ، فيرافق حركتها التماع كوميض البلور . فنهض غسطينو ودنا من البحر . اراد ان يرى امه تنزل من الزورق ليلمس فيها آثار احدى تلك الخلوات الحميمة التي اشترك فيها طويلاً دون ان يدرك منها شيئاً . أما الآن ، بعد ما تلقى من دروس سارو والاولاد ما تلقى ، فقد تبادر الى ذهنه انه سيرى الاشياء في ضوء جديد ، وبكل ما فيها من الحقيقة الصارخة الخالعة العذار .

وحيّته امه بيدها من بعيد قبل وصول الزورق . ولما وصلت قفزت برشاقة الى الماء ، وسارت خطوات حتى اصبحت الى جانبه ، وقالت له : « أجائع ؟ سنذهب تواً الى

المائدة . » ثم استدارت نحو الشاب وقالـــت له بصوت رخيم مشيرة بيدها : « وداعاً ... وداعاً ... والى غدٍ ... »

واكتشف غسطينو فيها نشاطاً اكثر مـــن المعتاد . وبينما كان يتبعها عـلى الشاطىء لم يستطع إلا ان يفكّر بان في وداعها للشاب نوعاً من النشوة العميقة ، كأنه قد جرى لها في ذلك اليوم مـا كان وجود ابنها معها يحول دون وقوعه في ما مضى . ولكن ملاحظاته وشكوكه توقفت عند هذا الحد . وما خلا تلك المظاهر من المرح الأبله البعيد عن وقارها المعتاد ، لم يلمس فيها اقل دليل ينبئه بما جرى في عرض البحر ، ويوضح له حقيقة العلاقات الغرامية بينها وبين الشاب . تفحّص وجهـها ، وعنقها ، ويديها ، في ضوء معلوماته الجديـــدة القاسية ، ولكن عبثاً ... فلم يجد عليها اثراً واحداً يفضح مـا لقيت من القبل والمداعبات الغرامية . وبقدر مـا كان ينعم النظر كان يزداد في نفسه شعوره بالخيبة .

قال لها بينما كانا يقتربان من الحجرة : « ذهبتما وحدكما اليوم ... بدوني ... » وكان يعلـل النفس سراً بـأن تجيبه : « اجـــل ... واستطعنا ان ننعم بالحب ... » ولكنها حسبت ذلك السؤال تلميحاً الى الصفعة التي كالتها له ، والى فراره منها ، فاجابت : « فلننسَ ذلك ... »

ثم توقفت فجأة وقبضت بيديها على كتفيه ، وجعلت تحدق الى وجهه بعينين ضاحكتين تلمع فيهما حماسة مهتاجة :
« أعلم انك تحبني حباً جماً ... قبلني ، ولنصرف النظر عما مضى ... »

واحس غسطينو بوجهه مشدوداً الى ذلك العنق الذي كان من قبل ناعماً شهياً يغمره بالعطر والدفء الطاهر العفيف . أما الآن فقد احس تحت شفتيه رعشة جديدة حارّة قد تكون الخلجة الاخيرة من الانتفاضة العنيفة التي احدثتها في هذا الجسد شفتا الشاب . وبعد هذا العناق ، صعدت الام مسرعة درجات سلم الحجرة ، وتمدد غسطينو على الرمل ووجهه يلتهب بنوع من الخجل أشكل عليه ادراك كنهه .

وسار مع امه في طريق العودة الى البيت وهو يحرك في اعماق نفسه المشوّشة احاسيس جديدة غامضة . واغرب ما في الامر انه كان من قبل ، في جهله التام للخير والشر ، يرى علاقات امه بالشاب موصومة بعيب كلّي وان يكن عيباً محفوفاً بالاسرار . أما الآن ، وقد فتحت عينيه تعاليم سارو وتلاميذه ، وبدأ يتثبت من صحة الشكوك السابقة الموجعة التي ساورت احساسه طويلاً ، فقد بدأ يواجه الحقيقة بشعور جديد . وطالما اتعبته تلك

الشكوك لانطوائها على نوع من الفضول المتعطش الى المعرفة . كانت المحبة البنوية الغيورة الساذجة قد استيقظت في نفسه . اما الآن ، تحت هذا الضوء القاسي الجديد ، فقد تبدلت تلك المحبة جزئياً بنوع من الفضول الجاف العنيف الذي لا يكتفي بما يرى من الادلة السطحية التافهة على ارتكاب الخطيئة . واذا كانت الكلمات المبهمة ، والحركات غير اللائقة ، قد جرحت شعوره دون ان تنير عقله في ما مضى ، واذا كان قد اشتهى ان لا ينتبه لها ، فانه الآن يراها رؤية جديدة بعين مدركة فاهمة ، فاذا بتلك التصرفات الخرقاء وتلك التلميحات التي كانت تمس احساسه ، تبدو له سخيفة ، حتى لكأنه يرجو ان يرى امه في الجرم المشهود ، في غمرة التهتك وسفاهة اللهو اللتين كشفت عنهما تعاليم سارو وتلاميذه .

ان رغبته في مراقبة امه لتمزيق تلك الهالة من الوقار والاحترام التي كانت تحيط بها في نظره حتى ذلك الحين ، ما كانت لتستيقظ في نفسه بمثل تلك السرعة ، لو لم يضعه القدر فجأة على ذلك الطريق .

وتناولت الام وابنها طعام الغداء في صمت تام تقريباً . كانت هي شاردة الفكر ، وكان هو غارقاً في افكار جديدة تكاد لا تصدّق بالنسبة اليه ، مما جعله يلزم الصمت خلافاً

لعادته . ولما خلا بنفسه بعد الغداء ، استولت عليه رغبة جامحة في الذهاب الى الاولاد الذين كانوا معهم . وكانوا قد اخبروه انهم يجتمعون في حمامات فيسبوتشي بعد الظهر ليضعوا خطة السطو على البساتين واعمال يومهم الاخرى . فبعد شعوره الأول بالتراجع والخوف بدأت تلك الرفقة الرديئة تجتذبه بقوة غريبة .

كان في غرفته ، مستلقياً على سريره ، في ذلك الظل الدافىء الذي تلقيه ستور النوافذ ، ينظر الى السقف ، ويلعب كعادته بزر الكهرباء الخشبي المعلق فوق رأسه . وما كانت تصل اليه من الخارج سوى ضجة خافتة ، كمرور سيارة على الطريق ، أو جلبة صحون وكؤوس في نزل مقابل على الجانب الآخر من الطريق . وفي السكون الشامل الذي تمتاز به ساعات ما بعد الظهر في ايام الصيف ، أحس غسطينو ان كل حركة كانت تحدث في البيت ضجة واضحة كأنها منفردة وقائمة بذاتها ، وهكذا سمع امه تدخل غرفتها ، وتقرع البلاط بعقبي اسكربينتها . كانت تروح وتجيء ، تفتح الجوارير وتغلقها ، وتنقل المقاعد أو الاشياء الاخرى ، فقال في نفسه ، وهو ينفض النعاس الذي كان قد بدأ يستولي عليه رويداً رويداً : « انها ستنام ، فلا استطيع ان اخبرها باني

اريد الذهاب الى الشاطىء . »

واخافته هذه الفكرة فنهض وخرج من الغرفة .

وكانت غرفته تطل على شرفة متصلة بالدرج ، والى جانبها باب غرفة امه . فدنا منه فوجده مشقوقاً ، وعوضاً عن ان يقرعه كما كان يفعل عادةً ، دفعه على مهل وفتحه نصف فتحة ، كأن قوة خفية من عقله الباطن جعلته يرغب في التسلل بغتةً الى حياة امه الحميمة الخاصة . وفي هذه الغرفة المتسعة اكثر من غرفته ، كان السرير الى جانب المدخل ، وفي الجانب الآخر خزانة واطئة فوقها مرآة كبيرة . وفجأة رأى غسطينو امه الى جانب هذه الخزانة .

لم تكن عارية ، كما كان ينتظر ويود في سره ان يراها ، بل كانت نصف عارية ، تستعد أمام المرآة لتنتزع عقدها وقرطيها . وكان عليها قميص من البتيستا الخفيفة يصل الى منتصف ردفيها ، الى ذلك المكان الذي تبرز فيه استدارة الجسم بعد ضمرة الخصر ، وقد بدا جانب مرتفع وجانب منخفض في وقفة استرخاء لامبالية . اما الساقان الانيقتان ، فكانتا تنحدران مستدقين في وضع متهامل كسول ، بين الفخذين الطويلتين العامرتين والعقبين الصغيرين . وكانت الذراعان المرتفعتان لفك العقد تحدثان

في عضلات الظهر حركة مرئية تحت القماش الخفيف الشفاف . وفي هذا الجسم المتألق زهواً بدا خط الخصر كأنه امّحى وضاع بين كتلتين ، احداهما منخفضة تحت الحقوين ، والاخرى مرتفعة الى النقرة . وكان الابطان مفتوحين كشدقي حيتين تمتد منها خصلات دقيقة من الشعر الرخو الطويل كأنه ألسِنةٌ توّاقة الى الانفلات والتحرر من الضغط الشديد واللحم الناضح بالعرق تحت ثقل الذراع . وبدا هذا الجسم ، الباهر السناء ، لعيني غسطينو الذاهلتين ، كأنه يرتجّ ويرتعش في ظل الغرفة . وكأنه ، بقوة تخمّره في عريه ، أخذ يتمدد تمدداً لامتناهياً ، فيستوعب في استدارة كشحيه الساقين والصدر والرأس جميعاً ، أو يدق ويستطيل حتى يلامس السقف . ولكن في المرآة ، كان وجه الام الاصفر البعيد يبدو كأنه ينظر اليه بعينين مداعبتين ، وقد افترّ الثغر عن بسمة مغرية ، كأنه في لوحة سوّدها الزمان وطال عليها الدهر في ظلال تلك الغرفة .

وكانت أول حركة عفوية أراد غسطينو القيام بها ، لدى رؤيته هذا المشهد ، الرجوع على عقبيه بسرعة ، ولكن فكرة مفاجئة جمّدته في مكانه اذ قال في نفسه : « انها امرأة ... » وظل واقفاً ويده متشبثة بقبضة

الباب ، وعيناه محملقتان . واحس بجميع مشاعره البنوية القديمة تثور فيه على جموده ، وتشده الى وراء ، الا ان مشاعر جديدة خجولة ، ولكن عاتية مستبدة ، كانت ترغمه على تركيز عينيه في اشياء ما كان في الليلة السابقة ليجرؤ على رفع نظره اليها .

وبينما كانت تتصارع فيه هذه القوى الجاذبة والرادعة معاً ، كانت دقائق اللوحة التي لم يرفع عنها نظره تنجلي وتتضح ، من وضع الساقين ، الى انحناء الظهر المتراخي ، الى مشهد الابطين الجـاني . وكانت رؤية هذه الدقائق تنطبق على شعوره الجديد ، وتعطيه برهاناً جديداً عن انها مسيطرة على خيـاله . وبانتقـاله هكذا دون تمهيد من الاحترام والاجلال الى الشعور المعاكس ، كاد يشتهي ان يرى ذلك الاهمال في التستر ينقلب تحت عينيه وقـاحة متحدية ، وذلك العري العفوي يستحيل عرياً اثيماً . وانحرفت نظرته عن الدهشة ممعنة في الفضول ، فإذا بها حسيّة الانتباه ، واقعية النزعة ، تدفعها رغبة جامحة خالية من الرحمة . وكان صوت يهدر في اعماقه دون انقطاع : « انها امرأة ... لا شيء غير امرأة ... » وكان يبدو له ان هذه الكلمات تنصب سيلاً من الشتائم والاهانات على ذلك الظهر الجميل وتينك الساقين العامرتين .

ولما خلعت عقدها ووضعته على رخام الخزانة الواطئة ، جمعت يديهـــا بحركة لطيفة حول شحمة اذنها لتنزع احد القرطين ، ومالت برأسها الى كتفها ، فأدارته قليلاً صوب الغرفة ، فخشي غسطينو ان تراه في المرآة الكبيرة القائمة الى جانب النافذة حيث كان يرى صورته من رأسه الى قدميه في شق الباب ، وعيناه تنظران . فرفع يده بجهد ، ودق البـــاب دقة خفيفة وهو يسأل : « هل استطيع الدخول ؟ »

فأجابته امه بهدوء :

– دقيقة وادخل يا حبيبي .

ورآها تتحرك ، وتتوارى . وبعد منـــاورة صغيرة ظهرت من جديد وعليها رداء طويل من الحرير الازرق الضارب الى الاصفرار .

قال غسطينو دون ان يرفع اليها عينيه :

– ماما ، اريد ان اذهب الى الشاطىء .

فأجابته ساهمة :

– في هـــذه الساعة ؟ ان الحر شديـد ، أليس من الافضل لك ان تنام قليلاً ؟

ومدت يدها تلامس بها خده وتداعبه ، بينا كانت ترد بيدها الاخرى خصلة شاردة من شعرها الطويل ، الأملس ،

الحالك السواد .

وعاد غسطينو ولداً لينال مأربه فلم يفه بكلمة . ولزم الصمت حسب عادته عندما يقابل طلبه بالرفض ، وعيناه الى الارض ، وذقنه مغروسة في صدره .

وكانت امه تعرف حق المعرفة معنى هـــذا الموقف ، ففسرته كما اعتادت ان تفسره فقالت : « اذا كنت تحب ، الى هذا الحد ، الذهاب الى الشاطىء ، فاذهب ، وقبل ان تغادر البيت مر بالمطبخ ليعطوك عصرونيتك ... ولكن لا تأكلها حالاً ، بـــل ضعها في الحجرة ، وخصوصاً اياك ان تستحم قبل الساعة الخامسة ... وعلى كلٍ فسأذهب اليك في هذه الساعة فنستحم معاً . »

وكانت تلك التوصيات تقليدية ، فلم يقل غسطينو شيئاً ، واندفع حافياً نحو السلم الحجري ، وسمع باب غرفة امـــه يغلق بهدوء .

نزل السلم راكضاً . وفي البهو شد نعليه بسرعة ، ثم فتح الباب وخرج .

استقبله توهج النور المتألق ، وغمرته الحرارة الصـــامتة المتدفقة من شمس رابعة النهار . وهناك ، في الهواء المختلج ، كان البحر يلمع هادئاً ، ساكناً . وفي النـــاحية الاخرى كانت غابة الصنوبر مائلة بجذوعها المحمرة تحت خضرتهـــا

الكثيفة المتماسكة . وتردد غسطينو قليلاً وهو يسائل نفسه هل الافضل له ان يسير على شاطيء البحر ام في جوار الغابة ؟ ثم اختار الطريق الاول ، لانه وان تعرّض فيه لأشعة الشمس المحرقة ، فلا يتجاوز حمامات فيسبوتشي دون ان يراها . لذلك توجه الى الشارع ، وراح يحث الخطى سائراً في محاذاة الجدران .

ولم ينتبه فوراً الى ان القوة التي كانت تجذبه الى حمامات فيسبوتشي لم تكن مقتصرة على معاشرة الاولاد بالنسبة اليه ، بل كانت تعود الى ما لقي من السخرية الوحشية بامه وبما يُعزى اليها من الغراميات . فالمحبة التي كان يشعر بها من قبل انقلبت الى احساس يختلف عنها كل الاختلاف ، الى احساس واقعي شديد القساوة . وبما ان مداعبات الاولاد الثقيلة كانت تساعد على اكتمال هذا الانقلاب في نفسه ، فقد بدت له ضرورية لا بد من البحث عنها وتشجيعها .

ولكن لماذا كان يبدي تلك الرغبة الشديدة في ان يفقد حبه لأمه ؟ لماذا كان يبغض تلك المحبة التي كانت لها في نفسه ؟ قد يكون مدفوعاً بنقمته عليها لأنها خدعته ، ولأنه حسبها غير ما هي بالحقيقة . وقد يكون انه لا يستطيع ان يستمر في حبها دون ان يصطدم بالألم ،

ففضّل ان لا يحبها مطلقاً ، وان لا يرى فيها غير امرأة . وكان يحاول ، بدافع غريزي ، التحرر مرة واحدة ونهائية من عبء المحبة البريئة ، القديمة ، المذّلة ، التي قوبلت بالخيانة ، ولم يعد التمسك بها سوى ضرب مُن السذاجة والبلاهة . ان القوة الجاذبة ، التي جمّدته منذ قليل وعيناه محلقتان في ظهر امه ، هي نفسها كانت تدفعه للبحث عن معاشرته السيئة لاولئك الأولاد العلوج . أليس في احاديثهم النابية ما يشبه مشهد ذلك الجسم العاري ، وما يزعزع شعوره البنوي الذي اصبح الآن يكرهه اشد الكره ؟ انه لدواء مرير قد يقتله او يشفيه .

ولما رأى حمامات فيسبوتشي من بعيد خفف سرعة سيره . وعلى الرغم من ان قلبه كان يخفق بشدة ، ومن انه كان ضيق الصدر يكاد يعجز عن التنفس ، تظاهر بالتجرد واللامبالاة .

وكان سارو كعادته جالساً تحت الخيمة ، الى جانب طاولته العرجاء المثقلة هذه المرة بزجاجة خمر وصحفة فيها بقايا حساء بالسمك ، ولكن غسطينو لم يرَ احداً من الاولاد حوله . الا انه ما كاد يقترب حتى رأى همس ، الولد الزنجي ، متمدداً بجسمه الاسود على بياض الرمال .

وكان سارو يبدو عديم الاهتمام بوجود همس ، يدخن

كأنه غـــارق في تفكيره ، وعلى رأسه قبعـة من القش منحدرة الى ما فوق عينيه .

وسأل غسطينو بصوت فيه نبرة الخيبة :

– أليس الآخرون هنا ؟

فرفع سارو اليه عينيه وحدّجه قليلاً ، ثم أجاب :

– ذهبوا جميعاً الى النهر .

وكان النهر على مسافة بضعة كيلومترات ، في مكان مقفر من الشاطىء ، يصب في البحر بين القصب والرمال .

قال غسطينو بلهجة من خاب رجاؤه :

– آه !... ذهبوا الى النهر ... وماذا راحوا يعملون هناك ؟

أجاب الزنجي هذه المرة :

– راحوا يتغدون ...

وعزّز رده بحركة معبرة ، رافعاً يـــده الى فمه ، ولكن سارو هزّ رأسه وقال :

– يا لهم من اشقياء ! لن يرتدعوا حتى يصاب احدهم بطلق ناري .

اذاً ، لم يكن الغداء الا ذريعـة لسرقة البساتـــين المجاورة . هذا ما تبادر الى ذهن غسطينو .

وقال الزنجي بلهجة فيها ادعاء حقير كأنه يتزلــف لسارو :

– انا لم اذهب معهم !

فأجابه سارو بصوت هادىء :

– لم تذهب معهم لانهم نبذوك .

فاحتج الزنجي وهو يقول متقلباً على الرمال :

– لم اذهب معهم لأبقى معك ...

وكان صوته متملقاً فيه رنــة الغنج المبتذل ، فاجابه سارو بنبرة الاحتقار :

– من سمح لك بأن تخاطبني هكذا ، دون كلفة ، يا عبد السوء ؟ لسنا أخوين ، على ما اظن !

– لا ، لا ، لسنا اخوين !

اجاب الزنجي دون ارتباك ، وبلهجة لا تخــلو من السرور ، كأن تلــك الملاحظة احدثت في نفسه ارتياحاً عميقاً .

فختم سارو قائلاً :

– اذاً ، الزم حدك .

ثم نظر الى غسطينو وقال :

– راحوا يطوفون الحقول والبساتين ليسرقوا فواكه وذرة ... ذاك هو غداؤهم .

فسأل غسطينو بقلق ظاهر :

– وهل يعودون قريباً ؟

فلزم سارو الصمت ، وراح ينظر الى غسطينو بامعان ، كأنه يدبّر في فكره امراً ، ثم اجاب على مهل :

– لن يستطيعوا العودة قريباً ... لن يصلوا قبل الليل ... ولكن نستطيع الذهاب اليهم اذا كان يطيب لك ذلك ...

– كيف ؟

– بالزورق .

فصاح الزنجي :

– هذا هو الرأي الافضل ، فلنذهب بالزورق .

ونهض مستعجلاً ، متحمساً ، ودنا من الرجل . الا ان سارو لم ينظر اليه ، بل استطرد قائلاً :

– لدي زورق ذو شراع ، فاذا كانت الريح مؤاتية نستطيع الوصول الى النهر في نصف ساعة .

فقال غسطينو مسروراً :

– اجل ، فلنذهب ... ولكنهم في الحقول ، وما العمل للوصول اليهم ؟

اجاب سارو وهو ينهض ويشدّ زناره الاسود :

– لا تخف ، سنجدهم بسهولة .

والتفت الى الزنجي الذي كان يراقبه بقلق ، وقال له :

– اما انت ، يا عبد السوء ، فساعدني بحمل الشراع والصاري .

فأجاب الزنجي بصوت يلتهب حبوراً :

– حالاً ، يا سارو ، حالاً .

وتبعه الى الكوخ .

وبقي غسطينو وحده ، فجعل يجيل نظره في ما حوله . وكانت قد هبّت ريح خفيفة ، فتغضّن البحر واصبح لونه ازرق بنفسجياً . وفي التماع الرمال الذهبي تحت الشمس المتوهجة ، كان الشاطىء يمتد الى اقصى الافق ، بين البحر وغابة الصنوبر ، وهو مقفر خاوٍ . ولم يكن غسطينو يعلم اين يقع النهر ، فراح يسرّح نظره المبتهج في الخط الطويل الذي يرسمه التقاء البحر بالشاطىء . اين يكون النهر ؟ قد يكون بعيداً هناك ، حيث يخلط احتدام الشمسِ الارضَ بالسماء في بخار معتكر مبهم . وكان غسطينو يتوق بشدة الى القيام بتلك الرحلة ، فقرر ان يقوم بها دون تردد .

وقطع عليه تخيلاته صوت رفيقيه اللذين خرجا من الكوخ . كان سارو يحمل حبالاً وشراعاً على احدى ذراعيه ، ويمسك باليد الاخرى زجاجة خمر . وقد سار

خلفه الزنجي ، يحمل صارياً طويلاً كأنه الرمح ، نصفه مطلي بدهان اخضر . وقال سارو دون ان ينظر الى غسطينو ، وهو يواصل سيره نحو البحر : « اذاً ... نحن ذاهبون ... » واحس غسطينو ، خلافاً لعادته ، ودون ان يعلم السبب ، انه مستعجل استعجالاً عجيباً . ولاحظ ان منخري الرجل المقرفين كانا اشد احمراراً ، واكثر التهاباً من ذي قبل ، كأن جميع العريقات المتشعبة فيها قد انتفخت بغتةً بدفقة غزيرة من الدم الحار . وكان الزنجي ينشد راقصاً خلف الرجل رقصة مبتكرة : « نحن ذاهبون ... نحن ذاهبون ... » ولما بلغ سارو حجرات الشاطىء ، جعل الزنجي يتباطأ عمداً ، ثم اشار الى غسطينو اشارة تعني انه يريد ان يخاطبه سراً .

وقف غسطينو متعجباً ، فقال له همس بلهجة خالية من الكلفة :

— اسمع ، اريد ان اتحدث الى سارو وحدي ... التمس منك ان لا تأتي معنا ... اذهب في سبيلك ...

اجاب غسطينو ، وقد استولت عليه الدهشة :

— لماذا ؟

فاستطرد همس بلهجة من فرغ صبره وهو يضرب الارض برجله :

– قلت لك اني اريد ان احدثه وحدي ... دون ان يكون معنا احد .

فقال غسطينو باصرار :

– اريد ان اذهب الى النهر .

– ستذهب مرة اخرى .

– لا ، اريد ان اذهب الآن .

فنظر اليه الزنجي بامعان . وكانت عيناه البيضاوان ومنخراه الدهنيان المختلجان تنم عن غلواء قلقة مضطربة بدت لغسطينو مقرفة تبعث الاشمئزاز ... واستطرد همس قائلا :

– اسمع ، يا بيزا ، اذا عدلت عن المجيء معنا اعطيك شيئاً لم تره من قبل ...

قال هذا وترك الصاري يسقط من بين يديه ، ثم راح يبحث في جيبه فاخرج منه مقلاعاً مؤلفاً من عود صنوبر ذي شعبين شدت اليهما قطعتان من المطاط متصلة احداهما بالاخرى ، فقدمه لغسطينو قائلا : « ألا يعجبك هذا ؟ »

ولكن غسطينو كان يريد الذهاب الى النهر . وقد بدا له اصرار الزنجي مشبوهاً . ودس الزنجي المقلاع في يده وهو يقول له :

– خذه ، خذه واذهب في سبيلك .

فأجاب غسطينو بعناد :

– لا ، لن اذهب ... عبثاً تحاول ...

قال الزنجي : سأعطيك ايضاً ورق لعب ...

ومدّ يده الى جيبه فاخرج منه كدسة من اوراق اللعب ، زهرية اللون ، مذهبة الاطراف ، ثم قال :

– خذ هذه ايضاً ، واذهب . بالمقلاع تستطيع ان تصطاد عصافير ... وورق اللعب جديد .

فأجاب غسطينو :

– قلت لك : لا .

فنظر اليه الزنجي مضطرباً ، متوسلاً ، وكانت قطرات كبيرة من العرق تلمع على جبينه ، ثم تغضّن وجهه ، معبراً عن الاستعداد للبكاء والعويل ، ثم نشج قائلاً :

– ولكن ، لماذا لا تريد ان تذهب ؟

فأجاب غسطينو بعنف :

– لاني لا اريد .

ثم ركض صوب سارو الذي كان قد وصل الى زورقه ، فسمع الزنجي يصيح خلفه : « ستدفع لي ثمن هذا العناد . » ووصل همس بعده لاهثاً الى قرب سارو .

وكان الزورق بعيداً عن الماء ، مرتكزاً على سندين من خشب الصنوبر غير المقشور . وكان سارو قد طرح فيه

الحبال والشراع وبدا مستعجلاً فارغ الصبر ، فأشار الى الزنجي سائلاً غسطينو :

– ماذا تعمل ؟

فأجاب غسطينو : انه آتٍ !

وبالفعل ، جاء همس راكضاً والصاري تحت ابطه ، وجعل يقفز قفزات كبيرة على الرمال . فقبض سارو على الصاري بالاصابع الست من يمناه ، ورفعه بالاصابع الست من يسراه ، وغرسه في ثقب المقعد ، ثم شد الشراع الى الدقل ، وقفز الى الارض ، واستدار الى الزنجي قائلاً له : « والآن ، فلنجرّه الى البحر . »

ووقف ملتصقاً بالمقدمة ، وممسكاً جانبي الزورق بيديه ، بينا وقف الزنجي في المؤخرة مستعداً للدفع . وظل غسطينو ينظر اليهما حائراً لا يدري ما يعمل . وكان الزورق متوسط الحجم ، نصفه ابيض ، ونصفه الآخر اخضر ، وقد كتب على مقدمته : « اميليا » .

صاح سارو : « هيا ! » وبدأ الزورق يتحرك على الرمال . ولما خرج السند الخلفي من تحت الحيزوم ، انحنى عليه الزنجي ، وحمله بين ذراعيه كما تحمل الام طفلها ، وراح يقفز كأنه يرقص رقصة فنية ، ليضع السند تحت الحيزوم في المقدمة .

وردد سارو قوله : « هيّا ! شدوا ! »

فتقدم الزورق من جديد مسافة مرموقة . وركض همس مرة أخرى من المؤخرة الى المقدمة بقفزة الراقص ، والسند بين ذراعيه . وجرت أخيراً دفعة ثالثة ، فوصل الزورق الى البحر ، وراح يتمايل على الماء . فصعد سارو اليه ، وجعل يشد المجذافين الى مكانيهما ، وهو يدعو غسطينو بحركات تعبر عن التواطؤ للتخلص من الزنجي . فسار غسطينو في البحر حتى غمره الماء الى ركبتيه ، ثم حاول ان يصعد الى الزورق . وما كان ليستطيع ذلك لو لم يقبض سارو على ذراعه باصابعه الست ، وينتشله من الماء كما ينتشل هراً . ورفع غسطينو عينيه الى الرجل الذي كان محوّلاً عنه انظاره حتى في اثناء انتشاله من الماء ، لأنه كان منصرفاً الى تقويم أحد المجذافين بيده اليسرى . وجلس الولد في مؤخرة الزورق وهو شديد الاشمئزاز من الاصابع الست التي قبضت عليه ، فخاطبه سارو قائلاً :

– حسناً فعلت ... اجلس هنا ... والآن سنرخي حبال الشراع ، ونبحر .

وصاح الزنجي :

– انتظراني ، اني ذاهب معكما ...

وارتمى في الماء متعباً ، لاهثاً ، وبلغ الزورق ، وتعلق بحافته . ولكن سارو قال له :

– لا ، لن تذهب معنا ...

فصرخ الزنجي حزيناً :

– وكيف ابقى وحدي ؟ كيف ابقى هنا ؟ ما العمل ؟

اجابه سارو وهو يباشر التجذيف بحرارة دون ان يجلس :

– اذهب بالترام ، وسترى انك تصل قبلنا .

وقال الزنجي باكياً ، وهو يركض في الماء الى جانب الزورق :

– لماذا ، يا سارو ؟ لماذا ؟ دعني اذهب معك انا ايضاً ...

فأفلت سارو المجذافين دون ان يقول كلمة ، وانحنى على حافة الزورق ، واضعاً على وجه الزنجي يده الضخمة ، ثم قال بكل هدوء :

– قلت لك لن تأتي معنا ...

ودفعه بقوة ، فانطرح الولد المسكين في الماء وهو يواصل صراخه :

– لماذا ، يا سارو ؟ لماذا ، يا سارو ؟

وتأثر غسطينو تأثراً مزعجـــا بذلك الصوت المتوسل الذي ايقظ في نفسه رحمة مضطربة ، مبهمة . اما سارو فلما نظر اليه غسطينو ابتسم وقال :

– انه مزعج ... ماذا نستطيع ان نعمل به لو جاء معنا ؟

وكان الزورق قد ابتعد عن الشـــاطيء ، فاستدار غسطينو ورأى الزنجي يخرج من الماء ، ويهز قبضته بوجهه مهدداً .

وسحب سارو المجذافين فوضعهما في قعر الزورق دون ان يفوه بكلمه ، ثم ســار الى المقدمة ورفع الشراع ، وتركه ينتشر ، فخفق قليلاً كأنه حائر ، وكأن الريح تصفعه من الجانبين ، ثم صفّق فجأة واتخذ اتجاهاً معيناً وقد نفخته الريح .

وقال سارو :

– حسناً ، نستطيع الآن ان نستلقي .

وتمدد في قعر الزورق ، داعيـاً غسطينو للتمدد الى جانبه ، وهو يقول مبرراً دعوته له :

– اذا كنا في قعر الزورق فإنه يزداد سرعة ...

فأطاع غسطينو ، واستلقى في قعر الزورق الى جانب ســـارو .

وكان الزورق يسير مسرعاً على الرغم من اتساع جوفه، وقد مال احد جانبيه ، وراح يرتفع وينخفض على موجات قصيرة ، ويجفل من حين الى آخر منتفضاً كجواد اخذ اللجام بسنه . وكان سارو مستلقياً ، ورأسه الى المقعد ، واحدى ذراعيه ممدودة تحت نقرة غسطينو تمسك بالدفة ، وقد لزم الصمت فترة ، ثم سأل غسطينو :

– أتذهب الى المدرسة ؟

فنظر اليه الولد نظرة حائرة .

وكان سارو مستلقياً على ظهره بكل طوله ، معرضاً منخريه الواسعين لرياح البحر بلذة كأنه يريد تبريد اللهيب المحتدم فيهما . وكان فمه منفرجاً تحت شاربيه ، وعيناه مغمضتين نصف اغماضة ، وقد انشق قميصه غير المزرر كاشفاً عن صدره المكسو بدغلة شعثاء من الشعر الاغبر القذر .

ثم اجاب غسطينو : «نعم» ، وقد فاجأته رعشة من الخوف.

– في اي صف انت ؟

– في الصف الثالث .

– اعطني يدك .

وقبل ان يستطيع غسطينو الرفض ، قبض سارو على يده ، فاحس الولد ان يده ليست في قبضة انسان ، بل

في شرك ، فقد استدارت حولهـا الأصابع الست الضخـمة القصـيرة وطوّقتها تطويقاً تاماً .

واستطرد سارو وهو يتمدد مرتاحـاً كأنه يغوص في نوع من الغبطة :

– وماذا تتعلم في المدرسة ؟

فاجاب الولد متلعثماً :

– اللاتينية ، والايطالية ... والجغرافيا ... والتاريخ ...

فسأل سارو بصوت يذوب رقة :

– ألا تتعلم قصائد ايضاً ؟

– بلى ، اجاب غسطينو .

– انشدني واحدة منها .

واجفل الزورق منتفضاً ، فحرّك سارو الدفة ، دون ان يتحرك ، ودون ان يغير وضعه الهانىء المغتبط .

قـال غسطينو مرتبكـاً ، وقد استولى عليه ذعر مباغت :

– ولكن ، ما هي القصيدة التي تريد ان انشدها لك ؟ اننا نتعلم قصائد عديدة ... فهناك قصائد للشاعر كاردوتشي .

فردد سارو بلهجة آلية رتيبة :

– كاردوتشي ... آه ، نعم ... كاردوتشي ... انشدني قصيدة من شعر كاردوتشي .

فسأل غسطينو ، وهو مرتعب من تلك اليـــد التي لا تتخلى عن فريستها ، يحاول تخفيف ضغطها المتزايد :

– أتريد « منابع نهر التيبر » ؟

اجاب سارو بصوت عميق كأنه يحلم :

– اجل ، هات « منابـع نهر التيبر » .

وبدأ الولد ينشد :

« في الجبل ، حيث تعصف الرياح
باشجار الدردار الكئيبة ... »

وكان الزورق يواصل سيره ، وسارو مستلقٍ ، انفه في الهواء الطلق ، وعيناه مغمضتان ، فجعل يحرك رأسه كأنه يرافق بحركاته توقيـع الابيات .

وتشبث غسطينو بمواصلة الالقاء كأنه الوسيلة الوحيدة للخلاص من حديث ، احس الولد بغريزته ، انه حديث خطر يمس سمعته ، فراح ينشد الاشعار على مهل وبكل وضوح ، وهو يحـــاول تحرير يده من الاصابـع الست القابضة عليها ، ولكن تلك الاصابـع كانت تشد ، وتشد اكثر من ذي قبل . ورأى الولد بهلع كبير انه يدنو من نهاية القصيدة . ولما انشد المقطع الاخير من « منابـع نهر التيبر » بدأ ، دون مقدمة او تمهيد ، البيت الاول من قصيدة « امام سان غيدو » ليتثبت ممـا كان قد ساوره

من ان سارو لا يفهم من الشعر شيئاً ، وان في نيته مآرب اخرى ... ولكن ما هي هذه المآرب ؟ هذا ما لم يستطع غسطينو ادراكه .

وقد نجح الولد في حيلتـــة البـارعة . فراح يتغنى بـ « اشجار السرو العالية في سماء بولغاري ... » دون ان ينتبه سارو الى ان رفيقه ينتقل من قصيدة الى اخرى . واخيراً توقف غسطينو عن الانشاد ، وصاح بصوت يدل على فراغ الصبر :

– اتركني ، اتوسل اليك ...

وجعل يشد بقوة ليخلص يده .

فارتعش سارو ... ودون ان يترك يد الولد فتح عينيه ، واستدار قليلاً واخذ ينظر اليـه . ولا ريب في ان وجه غسطينو كان يعبر عن اشمئزاز كبير وعن رعب سافر ، حتى ان سارو فهم فوراً ان خطته قد فشلت . فجعل يرفع اصـابعه واحدة بعد اخرى عن يد غسطينو المتألمة ، ثم قال بصوت خافت كأنه يخاطب نفسه :

– مـا الذي يخيفك ؟ بعد قليل سننزل من الزورق الى البر .

ونهض متثاقلاً ، وادار الدفة ، فمال الزورق واتجه الى البر .

ونهض غسطينو من قعر الزورق دون ان يفوه بكلمة، وراح يجلس في المقدمة وهو يدلك يده المتألمة . وكان البر يقترب ، فظهر الشاطىء بوضوح ، فـاذا هو مقفر تغمره الشمس ، وكان في ذلك المـكان عريضـاً ، ترتفع وراءه غابة الصنوبر بكثافتها الزرقاء الضاربة الى السواد . وكان النهر يحفر فيه شقاً واسعاً خلفه بقعة خضراء لازوردية من القصب . ولـكن غسطينو انتبه ، قبل كل شيء ، الى جمـاعة حول عمود طويل من الدخان يرتفع في الفضاء ، فاستدار الى سارو الذي كان جالساً على حـافة الزورق يدير الدفة باحدى يديه ، وسأله :

– أننزل هنا ؟

فاجاب الرجل دون اكتراث : نعم .

وبينما كان الزورق يدنو من البر ، رأى غسطينو الذين كانوا حول النار يتفرقون فجأة ، ويركضون الى الشاطىء ، فادرك انهم الاولاد . ورآهم يعملون اشارات كبيرة ، ولا ريب انهم كانوا يصيحون ، ولكن الهواء كان يدفع اصواتهم الى بعيد . وسأل غسطينو باضطراب ظـاهر : أهؤلاء هم ؟

فاجاب سارو : اجل ، هؤلاء هم !

واستمر الزورق يقترب من البر اكثر فـاكثر حتى

اصبح غسطينو يميز الاولاد بوضوح ، ولم يكن ينقصهم احد . كان هناك تورتيا ، وبرتو ، وسندرو ، والآخرون جميعاً . وكان هناك ايضاً همس . فاحس غسطينو ان وجود الزنجي يزعجه ، الا انه لم يدرك سبب هذا الشعور المفاجىء . .

واتجه الزورق رأساً إلى البر ، فادار سارو الدفة ليقترب من الشاطىء جانبياً . وبعد ان ارخى حبل الشراع وطواه بيديه ، جمد الزورق في مكانه وهو يتمايل وقد لامس اسفله الارض تحت الماء . فاخذ سارو مرساة وطرحها في البحر وهو يقول : « هيا ، فلننزل » . وخطا خطوة واسعة فوق حافة الزورق ، ونزل الى الماء ، ثم سار لملاقاة الاولاد الذين كانوا ينتظرونه .

ورآهم غسطينو يلتفون حوله وهم يصيحون كأنهم يرحبون به ، وهو يتقبل ترحيبهم بهز رأسه .

وأُستقبل غسطينو ايضاً بصيحات وهتافات اشدّ جلبة وضجيجاً . فحسبها الولد في لحظة عابرة من وحي صداقة قلبية ، ولكنه ادرك فوراً انه واهمٌ في ظنه ، فالعصابة كلها كانت تضحك وفي ضحكها مزيج من الاحتقار والسخرية ، ثم صاح برتو : « هتافاً لصاحبنا بيزا الذي

يحب التنزه في الزورق ! »

فجعل تورتيا يصيح هازئاً بغسطينو ، واقتدى به الجميع . وسندرو نفسه ، الذي كان حتى ذلك الحين متحفظاً لا يخلو من التهذيب ، اخذ ينظر الى الولد باستخفاف مهين اشد وقعاً من الشتيمة . اما الزنجي فكان يقفز متزلفاً حول سارو الذي سار على رأس العصابة صوب النار المشتعلة على الشاطيء . وراح غسطينو مع الآخرين يجلس الى جانب النار وهو في ذهول ، وقد ساوره شعور غامض بالقلق .

كان الاولاد قد بنوا بالرمل المبلل المضغوط موقداً اشعلوا فيه ناراً من جوز الصنوبر والاغصان الجافة والاشواك ، ورفعوا حول اللهيب حوالى عشرة عرانيس ذرة كانت تشوى على مهل . وكانت الى جانب النار كمية من الفواكه المختلفة على ورقة جريدة ، وبينها بطيخة حمراء كبيرة .

ولما جلس الجميع عاد برتو الى شن هجومه فقال :

– لك التهنئة يا بيزا ، فانت وهمس اصبحتما الآن زوجين منسجمين ... فليجلس احدكما الى جانب الآخر ... انتما اخوان إلى حدٍ ما ... والفرق بينكما زهيد ، وإن يكن هو اسود وانت ابيض ... فكلاكما يحب النزهات

بالزورق ...

وكان الزنجي ينفجر ضاحكاً وينتفخ متغطرساً ، بينما سارو جالس القرفصاء الى جانب النار ، يقلّب العرانيس على اللهيب بعناية واجتهاد ، والاولاد من حوله يضحكون ضحكات كلها سخرية وتحقير . وامعن برتو في مزاحه المتحدي ، ففاجأ غسطينو بضربة قوية جعلته يلتصق بالزنجي فترة قصيرة كان همس خلالها يقهقه بسفالة سافرة كأنه يتلقى ثناء عطراً ، بينما غسطينو يتقزز قرفاً دون ان يفهم شيئاً .

واخيراً ، صاح غسطينو مستفهماً :

– وبعد ؟ فما معنى هذه الحركات ؟ ذهبتُ في الزورق ... أجل ، وأي عيب في هذا ؟

وارتفعت من حوله أصوات تردد :

– أي عيب ؟ ! أي عيب ؟ ! ... ذهب في الزورق ، ويسأل أي عيب ...

وكان بعضهم يشدّون بأيديهم على بطونهم من كثرة الضحك ، فأجاب برتو ، بعد ان صاح ساخراً متعمداً الاهانة ، قال :

– الحق يقال ... ليس في عملك عيب ... ان همس يعتبره متعة ... ما قولك يا همس ؟

فتحرك الزنجـــي كمن هزّه الطرب ، وحرّك رأسه ايجـابا .

وبدأ غسطينو يتبيّن من خـلال الغموض المطبق شيئاً من الحقيقة ، فراح يقارن في ذهنه بـــين سخرية الأولاد وتصرف سارو المريب في اثناء النزهة ، ثم قال :

— لا اعلم ما تعنون . ولكني في هذه النزهة بالزورق لم اعمل شراً ... أنشدتُ سارو شعراً تلبيةً لطلبه ... وهذا كل ما جرى .

وصرخ الاولاد من كل جانب :

— ها ... ها ... اشعار ... انشده اشعاراً !

فصاح غسطينو وقد احمر وجهه من شدة الحنق :

— قل ، يا ســـارو ، أليست هــذه هي الحقيقة ؟

لم يجب سارو بلا او بنعم ، بل ابتسم ابتسامة غامضة وهو ينظر اليه نظرة حافلة بالالتباس والالغاز .

وكانت تلك الحركة لامبالية في مظهرهـا ، لئيمة في حقيقتها ، تعبر عن نوع من الاعتزاز المغرور ، فاعتبرهـا الأولاد تكذيباً موجهاً الى غسطينو ، وصاحوا :

— فهمنا ... فهمنا الآن ... ما رأيـــك يا سارو ؟ أيُسأل الساقي أجيدة خمرته ؟

وكان الزنجي يبدو في حقـده النّهـــاش اكثر الاولاد

طرباً بذلك المزاح الوسخ ، فاستدار غسطينو صوبه وسأله بخشونة :

– لماذا تضحك ؟

فاجاب متراجعاً :

– انا ؟ لا لشيء !...

وقال برتو :

– هيه ! لا تقتتلا ... وإلا اضطر سارو الى عقد الصلح بينكما .

ولكن الاولاد كانوا قد انصرفوا الى التحدث عن اشياء اخرى ، كأن القضية المطروحة على بساط البحث قد اتضحت ، ولم تعد تستحق المناقشة والاهتمام ، فأخذوا يروون كيف تسللوا الى الحقول وسرقوا عرانيس الذرة ، وكيف لاذوا بالفرار ، واطلق المزارع عليهم النار دون ان يصيب احداً .

وفي تلك الاثناء كانت العرانيس قد نضجت وغدت ذهبية اللون ، فرفعها سارو عن النار وراح يوزعها بحركات العطف والمحبة التي كان يجد فيها لذة خاصة .

واغتنم غسطينو فرصة انصراف الاولاد الى الأكل فتقلب على الرمال حتى اصبح الى جانب سندرو الذي كان يفرط الذرة باصابعه وهو جالس على حدة ، وقال له :

– اني لا افهم ...

فقاطعه سندرو بنظرة قاسية تعني انه لا يحتاج الى مزيد من التفاصيل ، ثم قال على مهل :

– جاء الزنجي بالترامواي ، واخبرنا انك ذهبت في الزورق مع سارو .

– وبعد ، فما هو العار في ذلك ؟

قال سندرو خافضاً نظره الى الارض :

– لا شأن لي في الموضوع . هذا شأنك انت ... وشأن همس ... اما سارو ...

ولزم الصمت ناظراً الى غسطينو .

– وما شأن سارو ؟

– ايه ! اما انا فلا اذهب معه وحدي في الزورق .

– ولماذا ؟

فألقى سندرو نظرة سريعة على ما حوله كأنه يحذر ان يسمعه احد ، ثم شرح لغسطينو « الحقيقة » التي كان الولد قد ادرك شيئاً منها في غمرة من الغموض .

قال غسطينو : آه !

ولم يستطع ان يفوه بكلمة اخرى ، وعاد يجلس بين الأولاد .

وكان سارو مقرفصاً في الحلقة ، وفي ملامحه طيبة

مصطنعة باردة ، وقد مال برأسه على كتفه ، كأنه والد حنون بين ابنـائه . ولكن غسطينو لم يعـد يطيق النظر اليه دون ان يشعر ببغض عميق له ، بغض اقوى من الحقد الذي كان في نفسه على الولد الأسود . وممـا زاد في نقمته على سارو ، وجعـله في نظره مقيتاً الى اقصى حد ، ذلك التحفظ الذي قابـل به احتجاجه ، كأنه تعمَّد افهام الاولاد ان اتهامهم يقوم على شيء من الواقـع . ورأى غسطينو ان رفقاءه جعلوا بينهم وبينه مسافة من الاحتقار والسخرية كتلك التي كان قـد لاحظها بينهم وبين الولد الأسود . إلا ان الزنجي ، بـدلاً من ان يشعر مثله بالذل ومرارة الاهـانة ، كان يبدو هانئاً ومغتبطاً بالوصمـة التي تلطخه . وقد حاول غسطينو مرات عديدة ان يعود الى شرح القضية التي كانت تعذبه وتؤلمه ، فكان دائماً يصطدم بهزء الأولاد أو بلامبالاتهم المهينـة . وعلى الرغم من الصراحـة التي اعتمدها سندرو ليشرح له معنى سخرية الاولاد به ونقائص سارو ، لم يستطع ان يفهم فهماً كلياً تاماً حقيقة التهمة الموجهة اليه . كان كل شيء مظلمـاً في نفسه وحوله ، كأنه لم يكن هناك شاطىء ، ولا سماء ، ولا بحر ، بل ظلمات حالكة ، وضباب كثيف ، واشباح مبهمة ومهدِّدة .

وكان الأولاد قد فرغوا من التهام عرانيس الذرة ، فطرحوا بقاياها على الرمال ، ثم اقترح احدهم قائلاً :

– ما رأيكم لو رحنا نستحم في النهر ؟

فوافق الجميع على هذا الاقتراح ، وحتى سارو الذي كان عليه ان ينقلهم جميعاً بزورقه الى حمامات فيسبوتشي ، نهض ، ومضى معهم إلى النهر .

وفي اثناء الطريق ، انفصل سندرو عن الجماعة ، واقترب من غسطينو وقال له بصوت خافت : « انك مستاء من الزنجي ، فألقِ عليه درساً قاسياً . »

فسأله غسطينو وقد استولى عليه القنوط :

– كيف استطيع ذلك ؟

– بضربه بلا هوادة ...

اجاب غسطينو وهو يتذكر حادثة الكماش :

– انه اقوى مني ، ولكن إذا ساعدتني ...

– كيف تريدني ان اساعدك ؟ هذه المشكلة من شأنكما ، انت والزنجي .

قال سندرو هذا بلهجة خاصة كأنه اراد افهام الولد ان رأيه لا يختلف عن رأي الآخرين في سبب البغض الذي يضمره لهمس ، فاحس غسطينو ان قلبه يتمزق مرارة ، اذ تبين له ان سندرو ، وهو الوحيد الذي

اظهر له قليلاً من الصداقة ، انحـاز الى صف النمّامين . ورآه يبتعد عنه مسرعاً بعد ان اسدى اليه بهذه النصيحة ، وينضم الى الآخرين ، كأنه يخشى ان يبقى طويـلاً الى جانبـه .

وكانوا قد وصلوا من الشاطىء الى غابة من اشجـار الصنوبر الصغيرة ، ثم توغلوا بين القصب على طريق رملية ضيقة . وكانت المقصبة كثيفة ، وفي رأس بعض قصباتها شرّابات بيضـاء ، والاولاد فيها يظهرون تارةً ، وتارة يتوارون بين تلك الرماح الطويلة الخضراء ، فيزيحونها من طريقهم منزلقين على الوحل ، فتحدث الاوراق الليفيـة المتصلبة حفيفاً جافاً . واخيراً وصلوا الى مـكان تنفرج فيه المقصبة عن ضفة منحدرة موحـلة . فمـا لبثت ضفادع كبيرة ان قفزت من كل جانب الى المياه المخضرّة . وهناك اجتمعوا واحداً الى جانب آخر ، وجعلوا يخلعون ثيابهم تحت انظار سارو وقد جلس على حجر مسنـداً ظهره الى المقصبة ، متظـاهراً بالانصراف الى التدخين ، الا انه بالحقيقة كان يراقبهم بطرف خفي من تحت جفونـه المغمضة نصف اغماضة . واحس غسطينو بالخجل ، ولكنـه خشي ان يكون هدفـاً للهزء والسخرية من جديد ، فأخـذ يخلع ثيابه ، وهو يتمهل قدر المستطـاع ملقيـاً على الاولاد

نظرات خفيَّة . وكانوا جميعاً يبدون مسرورين بأن يتعروا ، متنازعين ثيابهم متدافعين بالايدي والمناكب ، متنادين بفرح صارخ . والى جانب جدار اخضر من القصب كانت اجسامهم تبدو بيضاء ، من الاربيَّتين الى السرة ، بياضاً كامداً يكسوه الشعر ، فيبرز ما فيها من الخشونة وقلة الانسجام وهما طابع ابناء الشعب الخاص .

وكان سندرو وحده ، وهو أشقر شعر الرأس والجسم ، أنيق المظهر ، حسن القامة ، متناسب الجسم . وإذ كان نحاسي اللون من رأسه الى قدميه ، لم يكن يبدو عارياً ، او بالحري لم يكن عريه قبيحاً كعري الأولاد الآخرين .

وكان الجميع يتأهبون للغطس في غمرة من المزاح السفيه والحركات الهزلية ، والتدافع بالأيدي ، والملامسات الخلاعية ، وفي اختلاط لا حدود له ، مما جعل غسطينو يقف مشدوهاً لجهله هذا النوع من اللهو . وكان عارياً هو الآخر ، وقدماه مثقلتان بالوحل البارد ، يود ان يختبىء وراء المقصبة ليهرب على الأقل من أنظار سارو الذي كان محتبياً ، جامداً ، كتمساح يقطن ذلك المكان ، ويرنو اليه من خلال جفونه المغمضة نصف إغماضة . لكن اشمئزازه لم يكن ، هذه المرة ايضاً ، فضلاً عن المرات السابقة ، اقوى من الشعور المضطرب القلق الذي كان يجذبه الى تلك

العصابة ، ويربطه بهـــا ، ويجعله معها وحدة متماسكة الأجزاء لا تسمح له ، في تكتلها الوثيق ، باستجلاء اللذة الحقيقيـة التي كان يتمتع بها في اعماق ذلـــك الخضم من القرف . وكان الأولاد يتبادلون التحدي والمباهاة فيفاخر كلٌّ منهم بقدرته الجنسية وفحولتـه . اما تورتيا ، وهو اكثرهم ادعاء ، وأبرزهم رجولة ، وأشدهم غباء وقباحـة وابتذالاً ، فقد استولت عليه نشوة الغرور حتى انه صاح بغسطينو :

– وإذا ذهبتُ الى امك هكذا ، عارياً كما خلقتني يا رب ، ووقفت امامها ، فما عساها تعمل ؟ انها تأتي معي ، أليس كذلك ؟

اجاب غسطينو : كلا !

فرد تورتيا : وانا اقول لك : بلى ! تلقي عليّ نظرة فاحصة ، مدققة ... ثم تقول لي : « تعال ، يا تورتيا ، هيا بنا ... »

ان هذا الاغراب في الوقاحـــة جعل الاولاد جميعاً يقهقهون ضاحكين . وفيما هم يصيحون : « تعـال ، يا تورتيا ، هيا بنا ... » قفزوا الى الماء ورؤوسهم الى امام كتلك الضفادع التي روّعها وصولهم منذ قليل .

لم تكن المقصبة العالية المحيطة بالضفة المنحدرة قـــد

كشفت لهم إلا عن جزء يسير من النهر ، ولكنهم عندما وصلوا الى منتصفه رأوا على مساحة كبيرة مياهه العميقة الدكناء تجري ببطء حتى ليحسبها الناظر راكدة ، ثم تصب بعيداً على رمال الشاطىء . ومن ناحية البر ، كان الماء يجري بين صفين من الاشجار الصغيرة المستديرة الفضية اللون التي تلقي على الماء ظلالاً مبهمة . وكان النهر يمر تحت جسر حديدي صغير ، خلفه قصب ، وصنوبر ، وحور متلاصق بعضه بالبعض الآخر يحجب عن الانظار ما وراءه من المشاهد الطبيعية . وكان هناك بيت احمر تستر الاشجار نصفه ويبدو كأنه يراقب الجسر .

واحس غسطينو ، بعض الوقت ، بانه سعيد لوجوده في ذلك الماء البارد القوي التيار كأنه يريد ان يجرف ساقيه . ونسي احزانه والاهانات التي حلت به ، بينما الاولاد يسبحون في كل جانب ، رافعين رؤوسهم ، باسطين إذرعتهم على صفحة المياه المخضرّة الملساء ، واصواتهم ترن بوضوح في جو لا تتحرك فيه نسمة ، واجسامهم تبدو كأنها شعاب نباتية بيضاء صعدت من اعماق النهر المظلمة ، وراحت تترجّح هنا وهناك حسب مشيئة تموجات المجرى . ودنا غسطينو من برتو وسأله : « هل في هذا النهر اسماك كثيرة ؟ »

فنظر اليه برتو واجابه :

– ماذا تعمل هنا ؟ ... لماذا لا تبقى الى جانب سارو لتسلّيه ؟

قال غسطينو متأثراً وهو يستدير مبتعداً :

– احب ان اسبح .

ولكنه لم يكن قوياً ولا ماهراً في السباحة كالآخرين ، فما لبث التيار ان جرفه الى مصب النهر ، فاذا باصوات الأولاد تصيح بعيدة خلفه ، واذا بالمقصبة تنفرج ، وبالمياه تصفو فيظهر القاع الرملي حيث تتموّج زخارف ونقوش رمادية . واخيراً ، بعد ان مرّ بجورة عميقة المياه ، كأنها عين خضراء في المجرى الذي يخترقه النور ، وضع قدميه على اليابسة ، وجعل يصارع التيار حتى وصل الى الضفة . ففي المكان الذي يلتقي فيه النهر بالبحر ، كانت المياه ترتد الى وراء مرتفعة كالردف ، ثم ينخفض مستواها وتتسع كالمروحة فتصبح كأنها غلالة سائلة على الرمل الأملس ، فيطوّقها البحر بمويجات متوّجة بالزبد . وكانت ثمة بقع مبعثرة من الماء لم يبلغها المجرى ، تنعكس عليها هنا وهناك السماء المتوهّجة والمتدفقة نوراً على الرمال المشبعة بالمياه .

وراح غسطينو يسير عارياً على الرمال الطرية اللامعة ، ويتسلى بغرس رجليه في الرمل ويرى الى الماء يملأ فوراً الحفرة

التي تحدثها قدمه . وساروته رغبة مبهمة ويائسة تدفعه الى الابتعاد عن النهر ، والى السير على الشاطىء تاركاً خلفه الأولاد ، وسارو ، وأمه ، وحياته الماضية كلها ، لعله اذا مشى مستقيماً على الرمل الأبيض الناعم ، لا يلوي على شيء ، يصل الى بلد بعيد ليس فيه شيء من هذه الأشياء البشعة ، الى بلدٍ يستقبله فيه الناس كما يحب قلبه ، فيتسنى له ان ينسى كل ما تعلم منذ قليل ، ليتعلمه في ما بعد دون ان يُجرح شعوره ، ودون ان يذله الخجل ، ليتعلمه بطريقة عذبة ، طبيعية لا بد من ان تكون متوافرة ، وهي الطريقة التي طالما اشتهاها في غياهب رغائبه الغامضة . وكان ينظر الى الضباب البعيد يغمر اقاصي الافق ، والشاطىء ، والارض الموحشة ، فيحس ان قوة تجذبه الى هذه الرحاب اللامتناهية كأنها وحدها قادرة على تحريره من العبودية التي يرسف في اصفادها .

وايقظته من هذه التخيلات الحالمة صيحاتُ الاولاد الراكضين على الشاطىء ليركبوا الزورق ، ورأى ثيابه يلوّح بها احد الاولاد بالهواء ، ثم سمع برتو يقول : « بيزا ، اننا ذاهبون . » فاستعاد وعيه ، وسار في جوار البحر حتى وصل الى حيث كانت العصابة .

وكان الاولاد جميعاً مزدحمين في المياه الضحلة ،

وسارو يشرح لهم بحنـو ابوي ان زورقه صغير لا يتسع لهم كلهم ، إلا ان لهجته كانت تدل على انه يمزح . وفي غمرة من السرور ، استولت على الاولاد ثورة من الهيـاج فصـاحوا وهجموا على الزورق كأنهم ينقضّون على سفينة عدوة لاحتلالها . وفي لحظة عين امتلأ الزورق باجسام كثيرة الحركات . تمدد بعضهم في القعر ، وتكدس البعض الآخر في المقدمة ، وجلس البعض على المقاعد، والبعض على الحافتين مرسلين أرجلهم في الماء . وكان الزورق بالفعل صغيراً يضيق بهذا العدد من الركاب ، فغاص في البحر حتى كاد الماء يغمر حافتـه .

ونشر سارو الشراع وهو واقـف ، فانزلق الزورق على الماء متجهاً الى عرض البحر ، وحيّا الاولاد هـذه الانطلاقة بعاصفة من التصفيق .

ولكن غسطينو لم يشاطرهم ذلـك السرور ، بـل اخذ يبحث عن فرصة سانحة ليتحرر من وصمة النميمـة اللاحقة به كالعبء الثقيل .

واغتنم فرصة انشغال الاولاد بالمناقشة ،- فدنا من الزنجي الجالس وحيداً بكل سواده في المقدمة كأنه تمثال جديد من تلك التماثيل الخشبية التي كانت تزيّن بها مقدمات السفن القديمة ، وأمسك بذراعه وسأله :

– ماذا قلتَ عني للآخرين ؟

وكان الوقت غير مناسب لذلك السؤال . إلا ان غسطينو لم يستطع ، قبل تلك اللحظة ، ان يقترب من الزنجي ، لان هذا كان قد ادرك انه أوغر صدر غسطينو عليه ، فتدبر امره ليجتنب التقاءه طيلة الوقت الذي كانت فيه العصابة على اليابسة .

أجاب همس مشيحاً بوجهه :

– لا شيء غير الحقيقة .

– ما هذا النفاق ؟

فأطلق الزنجي كلمات أرعبت غسطينو إذ قالَ بنزق :

– اترك ذراعي ... ما قلت إلا الحقيقة ... ولكن حذار ، يا بيزا ! اذا تماديت في تحريض سارو عليّ فسأذهب الى أمك وأروي لها كل شيء .

وخيّل الى غسطينو ان هاوية رهيبة قد انشقت تحت قدميه ، فصاح :

– ماذا ؟ ماذا تقول ؟ انت مجنون ... اني ... اني ...

وتلعثم عاجزاً عن التعبير بالكلام عما تراءى له فجأة من خلال خرق مشؤوم فتحه في خياله المحموم تهديد الزنجي الفظيع . ولكنه لم يجد متسعاً من الوقت ليقول

اكثر مما قال ، فقـــد ارتفع صياح ساخر في الزورق ، وهتف برتو :

– ها هما الواحد الى جـــانب الآخر ... ومن سوء الحظ ان لا تكون لدينا آلة تصوير لنأخذ عنهما صورة ، اعني همس وبيزا ! لا تتحركا يا صغيريّ الحلوين ...

واستدار غسطينو ملتهب الوجه حنقاً وحزناً ، فرآهم جميعاً يضحكون . وحتى سارو كان يبتسم من تحت شاربيه ، وهو مغمض العينين نصف إغماضة في دخـــان سيكاره . فابتعـد غسطينو عن الزنجي مشمئزاً كأنه افعى ، وجلس آخذاً ركبتيه بين ذراعيـــه ، ثم راح ينظر الى البحر وعيناه مغرورقتان بالدموع .

وكانت الشمس في تلك الساعة تميل الى الغروب وهي حمراء في الأفق المغبر بالبخـار ، فوق بحر بنفسجي اللون تلمع فيه خطوط متألقة من الضياء . وفي الريح التي هبت بقوة في تلك الاثنـاء ، كان الزورق يتقدم قدر المستطاع وعلى ظهره جميع اولئك الاولاد الذين اوقره ثقلهم فـمال بهم ميلاً خطراً . وكانت مقدمته متجهة الى عرض البحر كأنه لا يسير الى البر ، بل الى الجزر البعيدة التي يبدو شكلها القاتم بـين الغيوم المخضبـة بارجوان الغروب وهي

ترتفع فوق البحر الزاخر كأنها قمم مشرفة على سهل عالٍ .

وشدّ سارو بين ركبتيه البطيخة المسروقة ، ثم قطعها شطرين بسكينه ، وجعل يحتزّ منها حُزوعاً سميكة ويوزعها على العصابة ، فيتناول الاولاد تلك الزوع ، ويلتهمونها بشراهة ... ينهشونها دافنين خدودهم في وسطها ، او ينتزعون باصابعهم قطعاً كبيرة من لبها . واخيراً كانت القشور المنهوشة حتى البياض تتطاير واحدة بعد اخرى وتسقط في البحر . ثم اغاروا على قنينة النبيذ التي انتزعها سارو بحركة تمثيلية من مخبئها في المؤخرة ، فدارت على الجميع ، واضطر غسطينو الى قبول جرعة منها . وكان النبيذ حاراً قوياً . وما ان فرغت القنينة حتى بدأ تورتيا يترنم باغنية من الاغاني الشعبية ، فاخذوا جميعاً ينشدون معه اللازمة . وبين الادوار كانوا يدعون غسطينو الى الغناء معهم ، وقد لاحظوا كلهم انه متكدّر شديد الغم ، ولكن احداً منهم لم يخاطبه الا ليهزأ به او ليوجّه اليه كلمات جارحة . فأحسّ المسكين انه رازح ، مسحوق ، تحت عبء مرارة ثقيلة ، وانه يختنق بغم عميق لا مخرج له منه ، جعله البحر البارد تحت الرياح والتهاب الغروب الرائع البهاء على المياه البنفسجية ممضاً قاسياً لا يطاق . وتبادر الى ذهنه انه من الاغراب في الظلم ان يسير على مثل

هذا البحر وتحت هذه السماء زورق كزورقهم مشحون بالشر ، والقساوة ، واللؤم ، والفساد . ان ذلك المركب الممتلىء ، بين الماء والسماء ، بأولئك الأولاد الذين يشبهون بكل شيء قروداً كثيرة الحركات الفاحشة ، ومعهم ، الى جانب الدفة ، هـــذا السارو المغتبط ، المنتفخ الأوداج ارتياحاً ، اصبح في نظر غسطينو مشهداً كئيبـاً محزناً . وفي بعض الاحيان كان يود لو يغرق الزورق ، لو تبتلعه اللجة ، ويقول في نفسه انه مستعد ان يموت بسرور لشدة شعوره بأنه اصيب بعدوى الدنس وأصبح كثمرة مدودة . وكم كانت بعيدة عنه تلك الساعة الصباحية التي رأى فيها من بعيـد ، للمرة الأولى ، الخيمة الحمراء في حمّامـــات فيسبوتشي ... انها بعيدة كأنها في غمرة أزمان غابرة ... وكلما كان الزورق يعـــلو موجـة كبيرة ، كان الاولاد يطلقون زعيقاً يرتعش غسطينو منه هلعاً . وكلما كان الزنجي يوجه اليه الكلام بذلّـه المعروف ، ذل العبد القن ، كان يود لو لم يسمعه ، وينطوي على نفسه بعيداً عنه في المقدمة . لقد ادرك انه في ذلك اليوم المشؤوم دخـــل مرحلة من الصعوبات والشقاء ، ولكنه لم يستطـــع ان يتصور كيف يمكنــه ان يخرج من هذه المرحلة . وشرد الزورق بعض الوقت في البحــر ، فوصل تقريبـــاً الى

المرفـــإ ، ثم عاد الى وراء . ولما شاطأ هرب منـــه غسطينو ركضاً دون ان يودع احداً . ولكنه بعد قليل خفف سرعته واستدار ، فرأى على الشاطىء القاتم ، في عتمة المساء المقبـل ، الأولاد يساعدون سارو على سحب الزورق الى اليابسة .

٤

منذ ذلك اليوم غاص غسطينو في عـــذابات نفسانية مظلمة ، وشعر انه علق في شرك خبيث كمن وقـع في الرمال المتحركة ، كلما حاول الخروج منها ازداد فيهـــا غرقاً . فتحت عيناه في ذلك اليوم بالقوة على اشياء كان يجهلها ، ولكنه تعلم اكثر مما يستطيع ان يحتمل . ومما كان يزيده غماً وقلقاً ويسم حواسّه جدةُ الاكتشافات التي فوجىء بها وتـكاثفها وبروزها دفعة واحدة حتى انه تعذر عليه استيعابها وهضمها .

خيّل اليه انه ، بعد المعلومـات التي اطلعته عليهـا العصابة ، ستصبح علاقاته بامه جلية واضحة ، وان القلق ، والارتباك ، والكراهية التي ايقظتها فيه مداعبات امه ، خصوصاً في الايام الاخير ، ستنقلب – كأن عصا سحرية قد لامستها – الى ادراك كله ارتيـــاح وهدوء وصفاء ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . فقد استقر في

نفسه ذلك المزيج من القلق والارتباك والكراهية . إلا ان مبعث هذا المزيج كان ، من قبل ، محبته البنوية ، فاصبح ينبع الآن من فضول سافل جعله بقاء المحبة البنوية الى جانبه شديد المرارة لا يطاق . واذا كان قد بذل في ما مضى محاولة مبهمة للفصل بين محبته البنوية واشمئزازه المنكر ، فقد بدا له ان هذه المحاولة اصبحت الآن شبه واجب يفرض عليه التفريق بين معلوماته الجديدة ، العقلية ، وبين شعوره المحتم بانه ، هو ، ابن هذه المخلوقة التي يريد ان يعتبرها امرأة فقط ، ولا شيء غير امرأة .

وخيل اليه انه يوم لا يعود يرى في امه سوى المخلوقة الحسناء كما يراها سارو والاولاد ، يتلاشى عذابه كله كالدخان في الهواء . لذلك راح يمعن في البحث عن الفرص والمناسبات التي تثبت له انه غير مخطىء في نظرته الى تلك الأم . ولكن النتيجة الوحيدة التي وصل اليها انه أحلّ في نفسه القساوة محل الاحترام ، والشهوة الجنسية محل الرقة العاطفية .

وفي البيت لم تتخذ امه تدبيراً ما لتتستر دونه ، لأنها لم تلاحظ تغيّر نظراته ، فظلت في مظاهرها وتصرفاتها كما اعتادت ان تكون : احياناً نصف عارية ، واحياناً كاشفة عن مفاتنها بحرية المرأة المطمئنة الى انها في بيتها

ومع ولدها . إلا ان غسطينو رأى في تلك المظاهر ضرباً من التحدي والاغراء . وكثيراً ما كانت تدعوه فيذهب اليها ويراها جالسة الى طاولة التبرج في ثياب خفيفة ونصف صدرها مكشوف ، او تناديه صباحاً عندما تفيق من النوم ، فيراها تنحني عليه لتقبله قبلة الصباح تاركة ثوبها ينشق عن جسم تتراءى خطوطه ومدوراته من خلال قميص شفاف دعكه الليل وغضّنه الرقاد . وكانت تروح وتجيء امامه كأنه غير موجود ، تلبس جوربيها أو تخلعها ، ترتدي ثيابها ، تتعطر ، تتبرج . وجميع هذه الحركات ، التي كانت تبدو لغسطينو طبيعية في وقت ما ، اصبحت الآن كثيرة المعاني ، كأنها جوانب مرئية من حقيقة كبيرة ، واسعة ، خطرة ، تتجاذب نفسه حيالها قوتان هما : الفضول والألم . وكان يردد بلامبالاة المراقب الواقعي : « ليست إلا امرأة ! » ولكنه بعد لحظة كان يحس انه لم يعد يطيق استهتار امه ولا اهمالها ، ولا يقظة إدراكه . وكم كان يود لو يصيح بتلك المرأة : « تستري ... اتركيني وشأني ... لا تدعيني اراك هكذا ... لستُ اليوم كما كنتُ بالأمس ... »

ولكن امله بأن لا يعود يرى في امه سوى امرأة ، ولا شيء غير امرأة ، ما لبث ان تقلّص وانهار . فقد

تبين له فوراً ان امه ، على الرغم من انها اصبحت في نظره امرأة ، ما تزال امه اكثر منها في كل وقت مضى . وكم كان ألمه شديداً حين فهم ان العار الذي اكتشفه قد التصق به وأمعن في تعذيبه دون انقطاع . وأيقن في اعماقه بغتة ان امه ستبقى دائماً تلك التي احبها حباً طاهراً بعيداً عن كل لبس او نيّة سيّئة ، وانها ستظل تخلط ما تقوم به من حركات الأنثى بحركات العطف والأمومة التي ما عرف سواها في ما مضى . وتبادر الى ذهنه انه لن يستطيع ابداً التفريق بين الفكرة الجديدة التي كوّنها عنها وبين الذكريات الأليمة عن الوقار الذي كان يتجسد فيها قديماً .

لم يكن في ما مضى يخامره شك بان بين أمه والشاب الاسمر صاحب الزورق الأبيض علاقات من تلك التي تحدّث عنها الأولاد تحت خيمة سارو ، ولكنه تعجب من تغير نظرته الى تلك العلاقات ورأيه فيها . فمن قبل كان يشعر بغيرة على أمه ، وبنفور من الشاب . وكان هذان الشعوران غامضين كأنهما راقدان . اما الآن ، في هذا الجهد الذي يبذله ليظلّ واقعياً هادىء الأعصاب ، فقد بات يود لو يحس بميل الى التفاهم مع الشاب ، وعدم الاكتراث بامه . ولكنه لم يستطع التفريق بين التفاهم والتواطؤ ،

ولا بين قلة الاكتراث والاذعان للذل . انه لا يرافق الآن امه وصاحبها في نزهاتها البحرية إلا نادراً ، لأنه يجتنب دعواتها قدر المستطاع ، ولكن في المرات القليلة التي رافقها فيها ، لاحظ انه كان يراقب حركات الشاب واقواله بعناية تكاد تكون رغبة في ان يتجاوز الشاب حدود اللياقة والتهذيب ، وفي ان تقوم الام نفسها بحركات تجعل شكوك الولد يقيناً . وكانت هذه الاحاسيس لا تطاق بالنسبة اليه لأنها تناقض ما كان يرجو ويحب . وكاد يتحسر على الرأفة العاطفية التي كانت تولدها في نفسه حركات امه المرتبكة ، وهي رأفة اكثر مودّةً وانسانية من الادراك الذي لا يرحم .

كان هذا الصراع النفساني يترك في اعماقه شعوراً بالدنس مشوباً بالشبهات ، فيخيّل اليه انه قايض براءته السابقة ، لا بحالة الرجولة والارتياح التي كان يعلل بها النفس ، بل بحالة مبهمة ، ملتبسة ، يضاف فيها القرف الجديد الى القرف القديم بدون مقابل . وما الفائدة من ان يرى المرء الاشياء بوضوح ما دامت النباهة لا تجلب سوى ظلمات جديدة متكاثفة ؟

وفي بعض الاحيان كان يسائل نفسه عما يعمل الصبيان الذين يكبرونه سناً ليحبوا امهاتهم وهم يعلمون ما

يعلم ، فيستنتج ان المعرفـة عندهم تقتل المحبة البنوية ، بينما عنده عجزت هذه عن طرد تلك ، فتعايشت الثنتان مؤلفتين مزيجاً يعكـّره القلق .

والمكان الذي كانت تجري فيه هذه الاكتشافات وذلك الصراع – وهو البيت – اصبح حتماً لا يطـاق . فعلى شاطىء البحر ، كانت الشمس ، وجماعـات المستحمين ، ووجود نساء كثيرات ، تسلـّيه وتشغله عن التفكير على الأقلّ . اما في البيت ، حيث ينفرد بأمه بين اربعـة جدران ، فكان يخيل اليه انه معرَّض لجميع التجارب ، محاط بجميع المتناقضات . ان تعرّي امـه النصفي كان يبدو على الشاطىء امراً عادياً بين مئات النساء العاريات ، اما هنا في البيت فانه يبدو وحيداً ، متجاوز الحد . كل حركة من حركاتها هنا ، وكل كلمة تتحرك بها شفتاهـا ، تتخذ اهمية كبرى لا حدود لها ، كأنها تجري على مسرح صغير حيث يظهر الممثلون اكبر مما هم في الحقيقة . وكان غسطينو مرهف الاحساس بروائـح التبخر التي تفوح من داخل البيوت . ففي ايام حداثتـه كانت الممرات والغرف والزوايا ، بالنسبة اليه ، اماكن متقلبة المعالم ، حافـلة بالاسرار ، يستطيع المـرء ان يقع فيهـا على اغرب الاكتشافات ، وان يعيش في دنيا من المغامرات الخيالية .

اما الآن ، ومنـذ التقائه بأولاد الخيمة الحمراء ، فقـــد اصبحت هذه المغامرات وتلـك الاكتشافات في نظره من نوع آخـــر ، ولم يعد يدري ما اذا كانت تجتـــذبه او ترهبه .

في ما مضى كان يتخيـل اشباحـــاً ، واشراكاً ، وموجودات حيّة ، واصواتاً ، في الجدران وفي قطـع الاثاث ، اما الآن فان خياله ، عوضاً عن ان يرخي العنان لخواطر الحداثة اللاهية المرحة ، ينطلق من نقطـة واحدة هي هذه الحقيقة الجديدة التي تبدو الجدران والاثاث وحتى هواء البيت كأنها مشبعة بها .

تلاشت تلك المحبة الصافية البريئة التي كانت ترتاح الى قبلة الأمومة ، ولا سيا ليلاً ، واضمحل النوم الهـــانىء المستكين ، وحلت محلها هذه المذلـّة المحرقة ، المخزية ، التي تتضخم ليلاً وتجد في الظلام غذاءً افضل لنارها الدنسة . كان يجـد نفسه في كل مكان من البيت يترصّد باستمرار العلامات والآثار الدالة على وجود امرأة ، المرأة الوحيدة التي يستطيع الدنو منها . وتلك المرأة كانت امه . فالبقاء الى جانبها اصبح ضرباً من المراقبة لها ، والمرور بالقرب من غرفتهـا امسى تجسساً عليها ، وملامسة ثيابهـا غدت نوعاً من ملامسة جسدها . وفي الليـل كانت تتراءى له

افظع الاحلام المزعجة الرهيبة وهو مفتح العينين . فيبدو له احياناً انه عاد طفلاً كما كان ، يخاف حركة او ظلاً ، وينهض فوراً ليركض ويختبىء بالقرب من سرير امه . إلا انه لا يكاد يضع رجله على الارض حتى يـدرك ، وان يكن في ضباب النعاس ، ان خوفه ليس إلا رغبة مقنعة بخبث ورياء ، وانه حين يصبح بـين ذراعي امه ستظهر بسرعة غايته الحقيقية من هذه الزيارة الليلية .

وفي بعض الليالي ، كان يهبّ من رقـاده مذعوراً ، ويسائـل نفسه هل الشاب الاسمـر ، صاحب الزورق الابيض ، موجود صدفة في الغرفة المجاورة مع امه . وكان يسمع حركات تؤكد في ذهنه هـذا الشك ، وحركات اخرى تنفيه ، فيتقلّب ، ويتقلّب في سريره . واخيراً يجد نفسه في الممشى دون ان يدري كيف ، امـام باب غرفـة امه ، في موقف من ينصت ، من يتجسّس . وعجز مرة عن مقاومة التجربة فدخل دون ان يـدق الباب ، ووقف جامداً في وسط الغرفة ، وكان ضوء القمر الفضي يدخل جانبياً من النافذة المفتوحة ، فجعـل يتفرس بامعان في السرير حيث كان الشعر الاسود المبعثر والاشكال المدورة والمستطيلة تدل على وجود المرأة .

— أهذا انت يا غسطينو ؟

سألته امه وهي تستيقظ من نومها . فعاد الى غرفته فوراً دون ان يفوه بكلمة واحدة .

ودفعه نفوره من البقاء مع امه الى ارتياد حمامات فيسبوتشي اكثر فاكثر . ولكن آلاماً من نوع آخر كانت تنتظره هناك ، وتجعل ذلك المكان بغيضاً اكثر من البيت . فالموقف الذي اتخذه منه الاولاد بعد نزهته في الزورق مع سارو لم يتبدّل ، بل ازداد وضوحاً واتخذ طابعاً نهائياً ، كأنه ناتج عن اقتناع قائم على براهين دامغة لا ترد . انه حكم مبرم غير قابل للاستئناف . فهو الذي قَبِلَ من سارو تلك الخطوة المشؤومة ذات السمعة المعروفة . ولم تكن هناك وسيلة لزعزعة هذا اليقين في اذهان الاولاد ، فأضيف الى الاحتقار الحسود ، الذي اثارته في نفوسهم ثروته ، احتقارٌ آخر مبعثه الفساد الذي عزوه اليه . وفي اعتبار تلك العقول البدائية ، كان الفساد نتيجة حتمية للثراء « انه ثري ... فلا عجب اذا كان فاسداً ! » هذا هو المعنى المستتر الذي كان يعبّر عنه الموقف المحقِّر الذي اتخذه اولئك الاجلاف من غسطينو . وما لبث هذا ان ادرك خيوط العلاقة التي ينسجها الاولاد بين التهمتين : الثراء والفساد ، ففهم بشيء من الغموض انهم يدّفعونه بذلك ثمن ما بينهم وبينه من الفوارق ، ثمن تفوقه عليهم :

هذا التفوق وتلك الفوارق الاجتماعية الظاهرة في ثيابه الجيدة النوع ، وفي احاديثه عن الرغد والترف اللذين يرفل بهما في بيته ، وفي ذوقه وتعابيره المختارة ، ناهيك بالتفوق والفوارق على الصعيد الخلقي ، وهي التي جعلته يستنكر ما عزي اليه من العلاقات مع سارو ، واصبحت تظهر بوضوح في تراجعه وإبائه امام اساليب الاولاد وعاداتهم . لذلك قرر بدافع الاذعان للحالة الانحطاطية التي طُرح فيها ، اكثر منه بحركة واعية من ارادته ، ان يصبح كما يريده الاولاد ، اي ان يكون شبيهاً بهم في كل شيء . فتعمد ارتداء اعتق ما لديه من الثياب واقبحها ، مما ادهش امه فاستغربت عدوله عما كان يحب من الكياسة والاناقة . وفي علاقاته بالاولاد اصبح يجتنب التحدث عن بيته وثروته ، وتظاهر بانه يرتضي مختاراً ، وبدافع الميل والرغبة ، تلك الحالة التي ينفر منها حتى الرعب . وامعن في تنفيذ خطته حتى انه اعلن يوماً ، بينما كان الاولاد يتحدثون ساخرين عن نزهته في الزورق مع سارو ، انه قد سئم الانكار ، وان ما يروى عنه صحيح ، وانه لا غضاضة عليه في ان يروي هو نفسه ما جرى . ومن البديهي انه بذل جهداً موجعاً للوصول الى هذا الدرك السحيق من الذل . وقد ارتعش

سارو من شدة التعجب لدى سماعه هذا الاعتراف ، إلا انـه خشي ان يفقد هيبـته ، فامتنع عن تكذيب غسطينو . وكانت نتيجة هذا الاعتراف العلني بصحة مـا يُروى عنه من اخبار طالما انكرها واحتج عليهـا ، ان الاولاد وقفوا حياله واجمين وقد استولت عليهم الدهشة ، فما كانوا ينتظرون منه مثل هذه الجـرأة وهو الضعيف الخجول . وبعـد لحظة من الذهول راحوا يسألون عن التفاصيل على امل ان يقص عليهم ما جرى بكل دقة وتوسّع ، فلم تعد الجرأة ، عندئذٍ ، كافية للردّ على الاسئلة ، لانـه لم يكن يعرف شيئـاً ، فوقف احمر الوجـه ، متوتّر الملامح ، ولزم الصمت . وطبعاً ، فسر الاولاد سكوته بطريقتهم الخاصة ، وجدوا انه نتيجة للخجل ، لا للجهل او لتعذر الامعان في الكذب كما كانت الحال في حقيقتها ، فـاذا بعبء احتقـارهم وسخريتهم يحط على كاهلي غسطينو اثقل واقسى تعذيبـاً ممـا كان .

ولكن على الرغم من هذا الاخفاق ، كان غسطينو قد تغـيّر بالفعل دون ان يدرك تغيّره تمام الادراك ، فقد تأثر بمعاشرة الاولاد اليوميّة اكثر من تأثره بعامل ارادته ، واصبح يزيد شبهاً بهم ، او بالحري فَقَد نزعاته القديمة دون ان يتمكن من اكتساب غيرها . ومراتٍ

كثيرة انتفض الاشمئزاز في نفسه وجعله يهرب من حمامات فيسبوتشي ليعود الى حمامات اسبيرنسا ، باحثـاً عن الالعاب البريئة التي كان يأنس بها في اوائل الصيف . ولكن الاولاد المهذبين الذين كان يلتقيهم هناك اصبحوا في نظره تافهين ، وألعابهم التي توجهها ملاحظات ذويهم او مراقبة مربياتهم غدت بالنسبة اليه مجلبة للسأم ، كما ان احاديثهم عن المدرسة ومجموعـات الطوابع وكتب المغامرات اضحت سخيفة . لقد غيرته العصابة القليلة الادب : غـيّرته بأحاديثها عن النساء ، بسرقاتهـا في الحقول ، وحتى بالاساءة التي كان هو ضحيتها ، فجعلت رفقاءه الاولين لا يطاقون . وفي هذه الاثناء جرت حادثة صغيرة أوضحت له استعداداته الجديدة . .

فذات صباح ، وصل متأخراً الى حمامات فيسبوتشي فما وجد سارو الذي كان قد ذهب للعمل في مكان آخر ، ولا وجد احداً من العصابة ، فجلس بحزن على زورق بالقرب من البحر . وبينما كان يجيل انظاره في الشاطىء لعلّه يرى سارو على الاقل ، رأى رجلاً معه ولد يبدو انـه اصغر من غسطينو بسنتين . كان الرجل ربلاً ، كبير البطن ، قصير الساقين ، سمينهما ، مستدير الوجه ، على انفه الدقيق نظارتان ، وكل ما فيه يشير الى انه موظف

اعتاد الجلوس طويلاً وراء مكتبه ، او انه معلم مدرسة . وكان الولد شاحب اللون ، هزيلاً في ثيـاب فضفاضة ، يضم الى صدره كرة من الجلد جديدة ، تلتمع لجدتهـا التماعاً . ودنا الرجل ممسكاً بيد ابنه ، وجعل ينظر الى غسطينو ملياً وهو متردد ، ثم سأله :

– أتستطيـع القيــام بنزهة في البحر ؟

أجاب غسطينو ، دون تردد :

– بكل تأكيد .

وبعد ان تفحصه الرجل بنظرة مشوبة بالشك والحذر ، أرسلها اليه من فوق نظارتيه ، سـأله عن اجرة النزهة مدة ساعة . وكان غسطينو مطلعاً على التعرفة فذكر المبلغ ، وقـد ادرك ان الرجل حسبه ابن صياد او ابن معلّم سباحة ، ولم يدرِ لماذا احسَّ في اعماقه ان هذا الظن يطربه كأنه مديح موجه اليه . وبعد هنيهة قال له الرجل :

– هيا بنا .

فبادر غسطينو فوراً الى العمل : وضع تحت مقدمـة الزورق سند الصنوبر غير المقشور ، ثم أمســك بحافة الزورق بيديه الاثنتين ، وجعل يشد بجهد ضاعفه شعوره

بأن كرامته وعنفوانـه في الميزان ، فدفع الزورق الى الماء ، ثم ساعد الاب والولد على الصعود اليه ، وقفز بعدهما ليقبض على المجذافين .

مضى بعض الوقت وغسطينو يجذف ، دون ان يقول كلمة ، على بحر هادىء وخالٍ من الزوارق كما هي العادة في بداية الصباح . وكان الولد يشد كرته الى صدره وينظر الى المجذّف بعينين صفراوين ، بينما جلس الرجـل بشكل مضحك ، وقد تدلى بطنه بين ساقيه ، وهو يحرّك رأسه يمنة ويسرةً على رقبته الغليظة حركة من استخفه الطرب لتلك النزهة ، واخيراً سأل غسطينو هل هو ابن صياد أم معلم سباحة ؟

ثم استطرد :

– وكم هي سنك ؟

اجاب غسطينو : ثلاث عشرة سنة .

فخاطب الرجل ابنه قائلاً :

– أرأيت ؟ هذا الولد سنه مثل سنك تقريبـــاً ، وهو يشتغل .

ثم توجه الى غسطينو سائلاً :

– أتذهب الى المدرسة ؟

– يا ليت !

قال غسطينو هذا بتلك اللهجة الخبيثة المرائية التي كان الأولاد يلجأون اليها في مثل هذه الحال ، ثم قال :

– يجب علينا ان نعمل لنعيش ، يا سيدي .

فخاطب الرجل ابنه من جديد قائلاً :

– أرأيت ؟ هذا الولد لا يستطيع الذهاب الى المدرسة ، لانه مضطر الى كسب معاشه بعمله ... وانت تجسر على التذمر لانك تدرس وتتعلم .

قال غسطينو وهو يجذف بقوة :

– نحن عديدون في البيت ونشتغل جميعاً .

فسأله الرجل : وكم تكسب في يومك ؟

اجاب غسطينو : حسب الاحوال ، اذا كان رواد الشاطىء كثيرين فاني اكسب عشرين ليرة او ثلاثين .

فقاطعه الرجل قائلاً :

– انك تعطيها لأبيك ، طبعاً .

فأجاب غسطينو دون تردد :

– بكل تأكيد ، ما عدا ما أحصل عليه علاوة كهبة شخصية لي .

ولم يشأ الرجل ، هذه المرة ، ان يجعله قدوة لابنه ، فاكتفى بان هزّ رأسه موافقاً على كلامه. وكان الولد صامتاً يشد كرته الى صدره اكثر فأكثر وينظر الى

غسطينو بعينين كامدتين بائختين .

وتكلم الرجل فجأة ، فسأل غسطينو :

– قل ، يا صغير ، ألا تود ان تكون لك كرة من الجلد مثل هذه ؟

وكان لدى غسطينو كرتان مهملتان في غرفته منذ مدة طويلة الى جانب العاب كثيرة مهجورة ... إلا انه أجاب :

– طبعاً أود ... ولكن ما العمل ؟ يجب ان نفكر اولاً بالاشياء الضرورية .

فاستدار الرجل صوب ابنه ، وقال بلهجة اقرب الى المزاح والعبث منها الى الجد :

– هيا ، يا بيارو ، اعطِ كرتك لهذا الولد الذي ليس عنده كرة مثلها .

فنظر الولد الى والده ، ثم نظر الى غسطينو ، ثم شد كرته الى صدره بحرارة وقوة فيها كل معنى الغيرة ، ولكنه لم يفه بكلمة واحدة .

فقال له أبوه برقة وعذوبة : ألا تريد ؟

أجاب الولد : كرتي لي .

– انها لك ، أجل ، ولكنك تستطيع ان تقدمها هدية اذا شئت .

قالها الوالد باصرار ، ثم استطرد :

– هذا الولد المسكين لم يحصل على كرة في حياته ... ألا تحب ان تعطيه كرتك ؟

أجاب الولد بلهجة حازمة : كلّا !

فتدخل غسطينو ، وقال بابتسامة حلوة :

– لا بأس ... اني لا استطيع ان اعمل بهذه الكرة شيئاً ، فليس لدي وقت للعب ... اما هو ...

فابتسم الأب لدى سماعه هذه الكلمات ، واغتبط باعطاء ابنه امثولة في الاخلاق معززة بمثل حيّ ، فراح يلقي موعظته وهو يلامس رأس ولده برفق ، فقال :

– أرأيت ؟ هذا الولد افضل منك ... على الرغم من كونه فقيراً ، فهو لا يريد كرتك ... انه يتركها لك . ولكن كلما ساورتك رغبات طائشة ... كلما تذمرت من شيء لا يعجبك ... يجب عليك ان تتذكر ان في هذا العالم اولاداً كثيرين كهذا الولد ... يشتغلون دون ان يتسنى لهم الحصول على كرة او لعبة ما .

فأجاب الولد بعناد : ان كرتي لي .

فتنهد الأب وهو شارد الفكر ، ثم قال :

– أجل ، انها لك .

ونظر الى ساعته ، ثم قال بلهجة حازمة فيها نبرة

الأمر :

– يا ولد ، عدّ بنا الى الشاطىء .

وأدار غسطينو الزورق صوب اليابسة دون ان يفوه بكلمة .

وبينما كان الزورق يدنو من الشاطىء ، رأى غسطينو سارو واقفاً في الماء ، يراقب مناوراته بانتباه ، فخشي ان يفضحه ويكشف عن حقيقته أمام الرجل والولد . ولكن سارو لم يقل شيئاً . وقد يكون فهم ما جرى ، او ان المسألة بدت له قليلة الاهمية ، فساعد غسطينو على سحب الزورق الى البرّ وهو صامت يعمل بجد .

وناول الرجل غسطينو مبلغاً من المال علاوة على الاجرة المتفق عليها وهو يقول له : « وهذا لك انت » . فأخذ غسطينو المبلغ واعطاه لسارو ، قائلاً بوقاحة مقصودة :

– اما الهبة فاني احتفظ بها .

ولم يقل سارو شيئاً ، بل ابتسم ، ودس المبلغ في قطعة القماش السوداء التي كان يتزنر بها ، وابتعد ببطء صوب زورقه .

تلك الحادثة الصغيرة جعلت غسطينو يشعر شعوراً نهائياً انه لم يعد من فئة الاولاد الذين عندهم كرة ، وقد تخاذلوا حتى اصبحوا لا يستطيعون العيش بدون رياء وسأم ، ولكنه

أحس ايضاً ، وبألم عميق ، انه لم يكن شبيهـــاً بأولاد العصابة . فقد كان لا يزال محتفظاً بجانب كبير من رهافة الاحساس . وكثيراً ما كان يقول في نفسه انه لو كان مثلهم تماماً لما تألم من شراستهم وقساوتهم عليه ، ولا من بذاءتهم وغبائهم . واذا به قد خسر حالته الاولى دون ان يتمكن من الحصول على حالة اخرى تحل محلها .

٥

في نهاية الصيف ، ذهب غسطينو والاولاد يومــاً الى غابة الصنوبر لصيد العصافير وقطاف الفطر . وكان هذان العملان هما اللذان يفضلها غسطينو من بين جميع اعمـــال العصابة . كانوا يدخلون الغابة ويسيرون طويـــلاً تحت قباب طبيعية من الاغصان ، على ارض طرية ، بـــين اعمدة حمر هي جذوع الاشجـــار ، ويرفعون انظارهم باحثين عن شيء يرفرف ويقفز في اعالي الاشجار . ومن حين الى آخر كان برتو او تورتيا او سندرو ، وهم امهر رماة العصابة ، يشد مطاط مقلاعــه ويطلق حجـــارة مسنّنة الى المكان الذي اكتشف حركة فيه . واحيانـاً كان يسقط شحرور مهيض الجناح وهو يرسل زقزقة تثير الشفقة ، فيجر نفسه على الارض حتى يقبض عليه احـد الاولاد ويسحق رأسه بين ابهامه وسبابتـــه . ولكن في غلب الاوقات كان الصيد غير مجدٍ ، فيتوغـل الاولاد

الى اعماق الغابة ورؤوسهم مرفوعة ، وانظـــارهم تبحث في اعالي الاشجار ، حتى يصلوا الى مكان يسيطر فيــه العوسج المتشابك ، وتكتسي ارضه بالشوك القاسي عوضاً عن البساط الناعم من إبر الصنوبر . وهنـا كان يبــدأ قطاف الفطر .

كانت الامطار قد هطلت طوال يومين ، فاذا بالعوسج ما يزال مبتلاً ، وعلى اوراقه تلمــع قطرات من المــاء ، وارضه ندية مخضوضرة . وفي عباب هذا العوسج كان يُرى الفطر الاصفر الملتمع بما فيه من ماوية ، وبينه نبتات ضخمة مفردة ونبتات صغيرة مزدحمة كأنها اسرة واحدة . فكان الاولاد يقطفونه برفق ، وينحنون فوق الاشواك ، ويمدون اثنتين من اصابعهـــم الى تحت رأس النبتة ، ويحرصون على انتزاع الساق المشبعة بالتراب والطحلب ، ثم ينظمون قطافهم كالعقد باغصان طويلة ورفيعة من الوزّال . ومن دغلة الى دغلة ، كانوا يجمعون بضعــة كيلوغرامات غداءً لتورتيا الذي كان ينشل كل ما جناه الاولاد ، متذرعاً بحق القوي .

وفي ذلك اليوم كان الجني وفيراً . فبعــد ان طــاف الاولاد في انحاء الغابة مدة طويلة ، وجدوا مساحة من العوسج تـكاد تكون بكراً ، وفيها من الفطر شيء كثير

مزدحم على بساط من الطحلب . ولما اقبل الغسق ، لم يكونوا قد استغلوا من ذلك المكان سوى نصفه ، ولكن النهار ولّى ، فعاد الاولاد ادراجهم على مهل يحملون بضعة عقود من الفطر وعصفورين او ثلاثة .

كانوا يسيرون عادة على طريق مختصرة توصلهم رأساً الى البحر . اما في ذلك اليوم فقد طاردوا شحروراً ماكراً راح يتنقل على الاغصان المنخفضة ويوهمهم ان اصابته سهلة ، فاجتازوا وراءه الغابة كلها طولاً ، وكانت تنتهي في جوار اول بيت من بيوت المدينة .

وكان الليل قد بدأ يسدل ستوره عندما تركوا الغابة وراءهم ودخلوا ساحة احد الاحياء الخارجية ، وهي ساحة واسعة ، غير مبلطة ، مفروشة بالرمال ، وفيها كُوَمٌ من النفايات وبعض العوسج والوزّال والشوك ، بينها دروب متعرّجة مفروشة بالحصى . وهنا وهناك على جوانب الدروب كانت تبدو شجيرات هزيلة من الغار الزهري اللون . ولم تكن ثمة ارصفة ، فالبيوت كانت مبعثرة ، متباعدة ، تفصل بين حدائقها الجافة مساحات كبيرة محاطة بالاسلاك الشائكة . وكانت هذه البيوت تبدو صغيرة جداً ، والسماء الساجية فوق تلك البقعة المربعة كئيبة كأنها تزيد في وحشة ذلك الفراغ .

اجتاز الاولاد الساحة اثنين اثنين ، كالرهبان المبتدئين ، وكان الاثنان الاخيران تورتيا وغسطينو : هـذا يحمـل عقدين طويلين من الفطر ، وذاك يحمل بيديه الضخمتين شحرورين تدلى رأسهما الداميان .

ولما وصلوا الى طرف الساحة همز تورتيا بمرفقه جاره غسطينو ، وقال له بلهجة الخبير المعتز ، مشيراً الى احد البيوت : أتدري ما هذا ؟

فنظر غسطينو الى حيث اشار تورتيا ، ورأى بيتاً شبيهاً بالبيوت الاخرى ، إلا انه اكبر قليلاً ، مؤلف من ثلاث طبقات ، وسطحه منحـدر تغطيه ألواح مـن الاردواز . وواجهته رمادية اللـون موحشة ، ونوافذهـا بيض ومغلقة كلها . وفي حديقة هذا البيت اشجار كثيفة تحجب قسماً كبيراً منه عن الانظار . ولم تكن الحديقة كبيرة ، فاعشاب اللبلاب تغطي جدرانها ، ومن خـلال حاجز المدخل تقع العين على ممر قصير بـين صفين من شجيرات العوسج ، في نهايته باب ذو مصراعين تحت طنف ناتيء .

قال غسطينو وهو يتوقف عن السير :

– ليس في هذا البيت احد .

فاجاب تورتيا ضاحكاً :

– لا احد ؟ يا لك من غبي !

ثم شرح ببضع كلمات وحركات نوع السكان المقيمين في ذلك البيت . وكان غسطينو قد سمع الاولاد يذكرون في احاديثهم العابثة بيوتاً لا يسكنها غير نساء لا يخرجن منها ليلاً ولا نهاراً ، وهن مستعدات دائماً لاستقبال من يأتي اليهن في مقابل مبلغ معين من المال ، ولكنه في ذلك اليوم رأى واحداً من هذه البيوت للمرة الاولى . وقد اثار شرح تورتيا في نفسه ما كان قد شعر به من الاستغراب والدهشة عندما سمع بهذه البيوت . وكما تعذر عليه ان يصدق ، في ما مضى ، ان هناك جماعة من هذا النوع توزع الغرام الذي يبدو له بعيداً عن المنال ، كذلك هذه المرة نظر الى البيت نظرة كلها شك وارتياب ، كأنه يبحث عن علامات وآثار تدل على الحياة العجيبة المختبئة وراء الجدران . وبعكس الصورة التي كان يراها في خياله ، ويرى فيها بيوتاً يرصع كل غرفة من غرفها رونقُ امرأة عارية ، بدا له ذلك البيت هرماً ومظلماً كئيباً ، فقال : « اي ، نعم ... » وتظاهر بعدم الاكتراث ، الا ان قلبه اخذ يخفق بقوة بين ضلوعه .

وقال تورتيا : هذا اغلى بيت في المدينة .

وجعل يسرد تفاصيل عن التعرفة ، وعدد النساء

والرجال الذين يرتادون البيت ، والوقت المحـــدد لكل زائر . وكانت هذه المعلومات تضايق غسطينو ، لانهـــا تعطيه ايضاحات حقيرة عـوضاً عـن الصورة الوحشيـة الغامضة التي كانت قد ارتسمت في ذهنه عـــن تلـــك الامـاكن المحظورة . ولكن استيـاءه لم يمنعه مــن ان يطرح على رفيقه اسئلة عديـدة ، وهـو يتظاهر بقـــلة الاكتراث ، ويخفي رغبته في الاطلاع وراء ستار مـــن اللامبالاة . ومــــا إن مرت فترة الدهشة والاضطراب ، حتى جاءته فكرة ، فكانت بالحاحها قوية قـــاهرة لا عهد له بها .

اما تورتيا الذي كان يبدو خبيراً في هذه الامور الى حد بعيد ، فقد امعن في اعطاء كثير من الايضاحات . وفيما كان الولدان يتحدثان اجتازا الساحة . ولمـا وصلت العصابة الى الشارع لم يبق عليها الا ان تتفرق لان الليل كان قد اقبل ، فاعطى غسطينو ما كان يحمل من الفطر لتورتيا ، وسار عائداً الى بيته .

اما الفكرة التي جاءته فكانت من ابسط الفِكَر واوضحها ، وان تكن اصولها في ذهنه غامضة ومعقدة : فقد احس بحاجة ملحة الى دخول ذلك البيت في تلـك الليلة نفسها للتعرف الى النساء المقيمات فيه . ولم تكن في

نفسه رغبة مبهمة ، بل عزم مصمم حازم يـــكاد يكون يائســاً .

خيّل اليه ان هذه هي الوسيلة الوحيدة ليتخلص من الوساوس التي اذاقته طويلاً مرَّ العذاب خلال ايام الصيف . فالاتصال بواحدة من اولئك النساء كان ، في اعتقــاده ، لتكذيب نميمـــة الاولاد تكذيباً حاسمــاً ، ولقطــع الخيط الدقيق من الشهوة الشاذة الــذي كان لا يزال يربطه بامه .

لم يكن مؤمنــاً بصواب الرغبة المحتدمــة في نفسه ، ولكنه كان يعتقد ان التحرر نهائياً من محبته لامه اصبح امراً ضرورياً . وقد وقعت في ذلك اليوم حادثة بسيطة ، لكنها عميقة المعنى ، فكانت بمثابة برهان على انه مصيب في ما يريد ، فرسخ هذا الاعتقاد في عقله .

وخلاصة هذه الحادثة انه كان ينام في غرفة خاصة به ، وتنام امه في غرفة اخرى . اما في ذلك المساء فكان من المنتظر ان تأتي احدى صديقات امــه لتمضي بضعة ايام عندهــا . ولمــا كان البيت ضيقــاً ، تقرر ان تنام الضيفة في غرفة غسطينو ، وان ينصب له سرير في غرفة امه . وفي الصباح رأى باستياء واشمئزاز كبيرين سريراً صغيراً يوضع الى جــانب سرير امــه الذي لم يكن قــد

ُرتب بعد ، فبدا كأنه ما يزال مشبعاً بالنوم . وكانت هناك ، الى جانب السرير الصغير ، اشياء الام ، وادوات تبرجها ، وكتبها .

احس غسطينو بنفور شديد لا يمكن التغلب عليه لدى تفكيره في ذلك الاختلاط المؤلم الذي يزداد قباحة بالنوم مع امه في غرفة واحدة . وتبادر الى ذهنه ان كل ما كان يتخيله تخيلاً مبهماً ويرتاب به سيظهر له بكل حقيقته في هذة الفترة من الحياة الحميمة . فكان لا بد له من معالجة هذا الخطر بايجاد الدواء المضاد له ، وهذا الدواء هو وضع صورة امرأة اخرى بينه وبين امه ، ليتمكن من توجيه افكاره الى هذه الصورة على الاقل ، ما دام عاجزاً عن توجيه انظاره اليها . فاذا كانت هذه الصورة ستاراً ، فانها تحجب وراءها عري الام ، وتعريه من انوثته ، وتعيد اليه طابعه الاصيل ، طابع الامومة . واعتقد غسطينو انه يستطيع ان يجد هذا الستار في احدى نساء البيت الذي دله عليه تورتيا .

اما كيف يتدبر أمره ليدخل ذلك البيت ، ويختار امرأة ، ويختلي بها ، فهذا ما لم يفكر فيه وما لم يسائل عنه نفسه ، او بالحري لم يكن قادراً على التفكير فيه حيال ذلك الوضع الذي واجه خياله فجأة .

وعلى الرغم من المعلومات التي قدمها له تورتيا ، ظلّ البيت ، وساكناته وما يجري فيه ، وراء حجاب غير شفاف ، وفي جو كثيف ، رهيب ، كأنه لم يكن حقيقة واقعية ملموسة ، بل نظرية مرجوة قد يتبين في اللحظة الاخيرة انها خاطئة . وكان نجاح المشروع منوطاً بعملية حسابية منطقية : فاذا كان البيت موجوداً ، كانت النساء موجودات ، واذا كانت النساء موجودات كان الاتصال باحداهن ممكناً . ولكنه لم يكن واثقاً من وجود النساء ، ولا من انهن شبيهات بالفكرة التي كوّنها عنهن ، لا لأنه يشك باقوال تورتيا ، بل لان منطقه كان عاجزاً عن المقارنة ، لافتقاره الى حدود التشبيه . لم يكن قد فكر بعد بان يرى ، ولو من بعيد ، ولو جزئياً ، شيئاً من المشروع الذي كان يريد الاقدام عليه .

وفي هذه الحال اصبح غسطينو المسكين شبيهاً برجل همجي من سكان الادغال ، يسمع اخبار القصور الاوروبية ، ولا يستطيع ان يتخيّلها إلا بصورة كوخه ، او كوخ اكبر منه قليلاً ، ولم يكن لديه سوى صورة امه ليثير بها في خياله صور اولئك النسوة ، ومداعباتهنّ ، وحبهنّ .

كان افتقاره الى الخبرة يجعل الصعوبات العملية التي

تنتظره في مقدمة اسباب قلقه وارتباكه . فبدا له انه اذا استطاع التغلب على هذه الصعوبات ، يكون قد حلّ المعضلة المعقدة الناجمة عن شكه بحقيقة المشروع . وكانت مسألة النقود تشغل خاطره وتقلقه بنوع خاص . ومع ان تورتيا ذكر له التعرفة والمبلغ الواجب دفعه ، ولمن يكون الدفع ، فقد ظل في تفكيره فريسة الذهول . ما هي العلاقة التي تقوم بين النقود التي تستعمل لشراء اشياء معروفة كالسلع التي يمكن التثبت من نوعها وجودتها ، وبين المداعبات ، والعري ، والاجساد النسائية ؟ وكيف يكون هناك ثمن محدود ، لا ثمن يتغير حسب الاحوال ونوع المتعة ؟

ان فكرة دفع نقود في مقابل تلك العذوبة المخزية والمحظورة كانت تبدو له غريبة قاسية كاهانة قد يستسيغها من يكيلها ، ولكنها موجعة بالنسبة الى من يتلقاها .

أصحيح انه يجب عليه ان يدفع النقود مباشرة للمرأة ، أم لشخص آخر بحضورها ؟

كان يبدو له ان من واجبه ان يجد طريقة ما ليخفي عن المرأة عملية الدفع ، وليدعها تتوهم ان العلاقة التي

قامت بينه وبينها كانت منزهة عن الغرض . ومهما يكن من الامر ، أفليس المبلغ الذي ذكره تورتيا زهيداً جداً ؟

كان غسطينو يعتقد انه ليس في العالم كمية كافية من المال لدفع ثمن تجربة كهذه من شأنها ان تضع حداً لمرحلة من حياته ، لتبدأ مرحلة جديدة .

وفي تلك الغمرة من الارتباك ، قرر اخيراً ان يعتمد على المعلومات التي تلقاها من تورتيا . قد تكون هذه المعلومات مخطئة ، ولكن لم يكن لديه سواها ليبني عليها خطة عمله . انه استفهم عن ثمن الزيارة وعرفه ، فلم يكن اكثر من المبلغ الموجود في صندوقة توفيره ، فهناك كمية من القطع النقدية الصغيرة لا تقل بجملتها عن المبلغ وقد تزيد عليه . اذاً ، سينتظر ذهاب امه الى المحطة لتستقبل صديقتها ، حتى اذا اصبح وحده في البيت ، بادر الى كسر الصندوقة ، وأسرع بما فيها الى تورتيا ، وذهبا معاً الى البيت القائم في الساحة . ولا ريب ان النقود المتوافرة لديه تكفيه وتكفي تورتيا ايضاً . وكان غسطينو يعلم ان تورتيا فقير ، وانه غير مستعد لخدمته إلا اذا جنى مكسباً من وراء هذه الخدمة . تلك هي الخطة التي وضعها . وعلى الرغم من استمراره في اعتبارها غير قابلة

التنفيذ مهما بذل في سبيلها من الجهود اليائسة ، فقد صمم على تأمين الشروط اللازمـــة لتنفيذها بالعزم نفسه الذي كان يدفعه الى القيام بنزهة في الزورق ، او برحلة الى غابـة الصنوبر .

واحتدمت فيه الحماسة حتى الهوس ، وشعر بأنه تحرر من سموم تبكيت الضمير ، ومن مركب العجز ، فاجتاز المدينة مسرعـــاً ليعود الى بيته . وكان باب المدخـــل الخارجي مغلقاً . إلا ان نوافذ الصالون في الطابق الارضي كانت مشقوقة تخرج منها انغام البيانو .

دخل غسطينو ، فرأى امه جالسة الى البيانو ، وقد ظهر وجهها في ضوء مصباحين كهربائيين محجوبين بغلالة ، وبقي القسم الاكبر من الصالون في الظـــلام . وكانت في جلستها على المقعد المستدير مستقيمة الجسم ، والى جانبها ، على مقعد آخر ، الشاب الاسمـــر صـــاحب الزورق الابيض . وكانت تلـك هي المرة الاولى التي يراه غسطينو فيهـا داخـل بيتـه ، فخـامره حدس قطـع عليـه أنفاسه .

وبدت امه كأنها شعرت بوجوده ، فأدارت رأسهـــا بحركة هادئة ، فيها الكثير من الدلال الطبيعي غير المقصود الموجّـه الى الشاب لا اليه هو . هذا على كل حـال ما

تبادر الى ذهن الولد . فلما رأته توقفت فجأة عن العزف ودعته الى الاقتراب منها قائلة : « غسطينو ... أفي مثل هذه الساعة المتأخرة تعود الى البيت ؟ تعال الى هنا ... »

دنا منها على مهل ، وعلى كره منه ، وقد تولاه الارتباك ، فجذبته اليها مطوّقة جسمه كله باحدى ذراعيها . وكانت عيناها تتألقان بضياء غير عادي فيه التماع الشباب ، وقد تردّدت على ثغرها ضحكة مرتعشة بلـّت اسنانها بالرضاب ... وأحس غسطينو ان الحركة التي جذبته بها وضمته اليها كانت على جانب كبير من الحمية والتهيّج والسرور المرتعش توقاً ، حتى انها أرعبته . ولم يستطع إلا ان يفكر بأن هذه النزوة الجامحة لم تكن تستهدفه هو ، وبأنها شبيهة الى حد بعيد بالهوس الذي استولى عليه منذ قليل حين كان يركض في شوارع المدينة على غير هدى مفكراً بأخذ ما في صندوقته من النقود ، ليذهب الى بيت الساحة ويمتلك فيه امرأة .

وسألته امه بصوت قاسٍ ، حنون ، يفيض بهجة وحبوراً :

— الى أين ذهبت ؟ أين كنت طيلة هذا الوقت ، يا عفريت ؟

لم يجب بشيء ، لأنه كان يعلم ان امه لا

تنتظر منه جواباً . وخطر في باله انها هكذا كانت تخاطب هرّهم من حين الى آخر . وكان الشاب ينظر اليه مبتسماً بعينين تضاهيان عيني صاحبة البيت تألقاً ولمعاناً ، وقد انحنى قليلاً الى الامام ، جامعاً يديه بين ركبتيه ، وبين أصابعه سيكارة مشتعلة .

واستطردت الأم قائلة :

– اين كنت ؟ قل ... يا لك من متشرّد !

وبحركة حنون وعنيفة لا تقاوَم من يدها الجميلة العريضة الدافئة ، جعلت تشعّث شعره ، ثم ردّته الى جبهته ، واستدارت الى الشاب قائلة له بفخر واعتزاز :

– أليس جميلاً ؟

أجاب الشاب :

– انه جميل كأمه !

وهذا الثناء المبتذل جعله يطلق ضحكة مثيرة ، اضطرب لها غسطينو ، واستولى عليه شعور بالخجل والخزي ، فتحرك كأنه يحاول التخلص من ذراع امه التي تطوقه .

وقالت له امه :

– اذهب حالاً واغسل يديك ، واسرع لأننا سنجلس الى مائدة الطعام فوراً .

فودّع غسطينو الشاب وخرج من الصالون . وما كاد يدير ظهره ، حتى استؤنف العزف على البيانو استئنافاً للنغم الذي كانت امه قد توقفت عنده لدى وصوله .

ولكنه لما دخل الى الممشى ، توقف يستمع الى الالحان التي تخرجها أصابع امه من الآلة الموسيقية . وكان الممشى مظلماً شديد الحرارة ، وفي آخره تبدو من باب مفتوح الطاهية في ثوبها الابيض ، تروح وتجيء على مهل بين المواقد وطاولة المائدة ، تحت الضوء الكهربائي . وكانت الأم تواصل العزف دون انقطاع ، وموسيقاها تفيض حيوية ونشاطاً ، فاذا بها تضج متألقة ، حتى ان غسطينو شبّهها بلمعان عينيها عندما احتضنته وضمته الى صدرها . فلا ريب في ان القطعة التي كانت تعزفها من القطع التي تدعو الى هذا النوع من التفسير ، ومن المحتمل ان تكون أمه هي التي تضع فيها هذه الحيوية ، وهذا اللمعان ، وهذه الحرارة ، فقد كان البيت كله يرتجّ بها ويردّد أصداءها .

وخيّل لغسطينو ان الناس في الشارع يقفون ليستمعوا الى هذه الموسيقى ، وفي نفوسهم استياء من الفحش الذي تعبّر عنه كل نبرة من نبرات ذلك النغم .

وفجأة ، في وسط احد الالحان توقف العزف ، فأحس

غسطينو إن الحمية التي كانت متجسدة بالموسيقى قد وجدت ، على حين غرة ، وسيلة أفضل للتعبير عن غلوائها ، فمشى خطوتين حتى اصبح على عتبة الصالون .

ان ما رأى لم يدهشه كثيراً : كان الشاب قد نهض ، وأكبّ على المرأة يقبّل شفتيها ، وهي جالسة على مقعدها المستدير الضيّق ، مستلقية الى وراء ، تطوق باحدى يديها عنق الشاب ، وتلقي باليد الاخرى على البيانو . وفي وضوح النور ظهر ارتعاش الجسد المستلقي ، واختلاج الصدر الناهد المستسلم ، وإحدى الساقين منطوية تحتها والاخرى ممتدة تشدّ على مداسة البيانو . اما الشاب فكان في وقفته محافظاً في الظاهر على هدوئه اللامبالي ، وقد أحاط باحدى ذراعيه رأس المرأة ، كأنه يخشى ان تنقلب عن مقعدها وتسقط على الارض تحت تأثير شهوتها المتلظية ، بينما ذراعه الاخرى مرخية الى جانبه ، وبين اصابعه سيكارة مشتعلة . وكانت ساقاه في بنطلونه الابيض مرتكزتين بقوة ومتانة توحيان بالشعور انه رابط الجأش ، هادىء الاعصاب ، يقوم بعمله عن قصد وتعمّد .

واستغرقت القبلة وقتاً طويلاً . وبدا لغسطينو انه كلما كان الشاب يحاول اختصار القبلة ، كانت الأم تكرهه على الاستمرار فيها بنهم لا يعرف الشبع . ولم يستطع إلا ان

يفكر بأنها تبدو جائعة كمن أضناه صيام طويل . ثم حركت يدها على البيانو فأرسلت منه صوتين او ثلاثة اصوات جهورية غليظة انطلقت في البيت بهدوء . وعندئذٍ انفصل كلٌ منهما عن الآخر بحركة واحدة ، فتقدّم غسطينو خطوة في داخل الصالون وقال : ماما !

فدار الشاب على عقبيه ، وراح يقف بالقرب من النافذة ويداه في جيبيه ، وساقاه منفرجتان ، كأنه كبير الاهتمام بما يجري في الشارع .

قالت الأم : غسطينو !

فدنا منها ، وكانت تلهث بشدة حتى ان صدرها بدا خافقاً بوضوح تحت حرير صدريتها . وكانت عيناها تلمعان اكثر فأكثر ، وفمها منفرج الشفتين قليلاً ، وشعرها مشعث انحدرت منه خصلة ناعمة كالأفعى واسترسلت على طول الخد .

همست بصوت منكسر ، وهي تحاول ان ترتب شعرها وهندامها قدر المستطاع :

— ماذا تريد ؟

وأحس غسطينو بشفقة ممزوجة بالقرف تعصر قلبه ، وكان يود لو يصيح بأمه : « عودي الى نفسك ... هدئي روعك ... لا تتنفسي بهذه القوة ... كلميني ... ولكن

ليس بهذا الصوت ... » إلا انه لم يقل شيئاً من هذا ، بل اسرع بالقول كأنه يتعمد المبـــالغة في الظهور بمظهر الولد الغرير بصوته ومطلبه :

– ماما ! هل استطيع ان اكسر صندوقتي ؟ اود ان اشتري كتاباً .

فأجابت وهي تمدّ يدها لتداعب جبهته :

– نعم ، يا حبيبي !

ولما لامسته تلك اليد لم يستطع الإمتنـــاع عن القيام بحركة تراجع ، حركة خفيفة تكاد تخفى على الملاحظة ، لكنها بدت له بارزة مرئيـــة ، فقال : « إذاً ، اكسرها ... » وسار بخطى خفيفة لا تحدث اقل ضجـــة ، وخرج من الصالون .

وصعد السلم ركضاً حتى بلغ غرفته . لقد اعطتـــه صندوقته ذريعة استثنائية وغير منتظرة ، فلولاها لما عرف مـــا يقول لامـــه ، وهي في تلك الحـــال من الاضطراب .

وكانت الصندوقة في قعر الغرفة المظلمة ، وقد تسلل اليها النور من إحدى النوافذ فأضاء بطنها الزهري اللون المشقوق ببسمة عريضة سوداء . أشعل غسطينو المصبـاح الكهربائي وقبض على الصندوقـــة بشراسة جنونية ، ثم

طرحها بقوة على الارض ، فانكسرت لافظة من فرضة عريضة فيها كمية من قطع النقود وبضع اوراق نقدية صغيرة الحجم .

قرفص غسطينو وراح يعد النقود باقصى ما يستطيع من السرعة . وكانت اصابعة ترتجف . وبينما هو يعدّ نقوده ، لم يقدر ان يمحو من خياله مشهد أمه مستلقية والشاب مكبٌ عليها ، كأن هذه الصورة حية ترتعش بين النقود المبعثرة على ارض الغرفة . فاضطر ان يعدّ نقوده من جديد لشدة ما احدث هذا المشهد في عقله ومشاعره من الفوضى والاضطراب . ولما انتهى من حسابه ، تبين له ان ما يملك اقل من المبلغ الذي يحتاج اليه .

ما العمل ؟

فكر لحظة بأن يأخذ من نقود امه ما ينقصه . كان يعرف اين تضع نقودها . ولم يكن هناك ما هو اسهل عليه من ان يأخذ ما يريد ، ولكنه لم يتمكن من اقناع نفسه باللجوء الى عمل من هذا النوع ، فقرر ان يطلب الى امه ، بكل بساطة ، المبلغ الذي ينقصه . بأي ذريعة ؟ وهنا فتقت له الحيلة فوجد ذريعة لا غبار عليها... وفي هذه اللحظة سمع صوت الصنج يدعو الى العشاء ،

فوضع ثروته بسرعة في احد الجوارير ، ونزل الى الطابق الارضي .

وكانت أمه قد جلست الى المائدة . وفي جو الغرفة رأى الولد فراشات كبيرة مشعرة مسودّة اللون ، تدخل من النافذة المفتوحة وتتهافت على النور ، فتصطدم اجنحتها بستارة المصباح الكهربائي . وكان الشاب قد ذهب ، فأستعادت الأم وقارها الهادىء المعتاد . ونظر اليها غسطينو فتعجب من جديد ، كما تعجب يوم ذهبت وحدها مع الشاب في نزهة بحرية طويلة ، لانه لم يرَ على ثغرها أثر تلك القبلة التي كانت منذ قليل تسحق شفتيها . ولم يكن في وسعه ان يعبر عما كان يخامره عندما خطرت له هذه الفكرة ، فقد يكون شعوراً بالرأفة على هذه الأم التي كانت تلك القبلة بالنسبة اليها غالية عزيزة وبالغة التأثير الى اقصى حد . ولكنه أحسّ باشمئزاز عنيف ، ليس مما رأى ، بل من الذكرى التي خلّفها ذلك المشهد . كان يود ان يصرف عن فكره هذه الذكرى ، ان ينساها . أكان من المحتمل ان يدخله من عينيه اضطراب كهذا يجره الى مثل التبدّل الذي حدث فيه ؟ لقد ساوره حدس بان هذه الذكرى ستظل ابداً راسخة في ذهنه .

ولما فرغا من تناول الطعام ، صعدت الام الى الطابق

العلوي . وكانت تلك هي الفرصة الوحيدة التي يستطيع فيها ان يطلب اليها بعض المال ، فلحق بها ، ودخل خلفها الى غرفتها ، فجلست الى مرآتها وجعلت تنظر الى وجهها متفحصة بكل هدوء .

قال غسطينو : ماما !

فسألته وهي شاردة الفكر : ماذا تريد ؟

– اني بحاجة الى عشرين ليرة .

وذلك هو المبلغ الذي كان ينقصه .

– وماذا تريد ان تعمل بها ؟

– أود ان اشتري كتاباً .

فقالت وهي تمر بشرابة البودرة على وجهها :

– أما قلت انك تريد ان تكسر الصندوقة ؟

فردّ غسطينو بالجواب الصبياني الذي كان قد أعده ، قال :

– بلى ... ولكني اذا كسرتها لا يبقى لي شيء مما ادخرته ... أود ان اشتري الكتاب دون ان اكسر صندوقتي .

فضحكت بعطف وحنان ، ثم قالت :

– انك ما تزال طفلاً .

ونظرت الى وجهها قليلاً في المرآة ، ثم استطردت

قائلة : « في حقيبتي ، على السرير ، تجد حافظة نقودي ... خذ عشرين ليرة منها وأعد الحافظة الى مكانها . »

ووجد غسطينو الحقيبة ، وتناول منها حافظة النقود وأخذ عشرين ليرة ، ثم ضم الورقتين النقديتين في قبضته ، وانطرح على سريره الصغير المنصوب الى جانب سرير أمه . وكانت الأم في تلك الاثناء قد فرغت من ترتيب هندامها ، فنهضت وجاءت تجلس الى جانبه وهي تقول :

— وماذا تريد ان تفعل الآن ؟

أجاب وهو يتناول عن الخزانة الصغيرة كتاب مغامرات : « أريد ان اقرأ » ، وفتح الكتاب على صفحة مصوَّرة .

— حسناً ، ولكن لا تنسَ ان تطفىء النور قبل ان تنام .

وراحت تقوم ببعض الترتيبات في الغرفة . وكان غسطينو مستلقياً ، وقد وضع احدى ذراعيه تحت رأسه ، فأخذ ينظر اليها تروح وتجيء ، وهو يحس انه لم يرها قط في مثل هذا الجمال الرائع . فان ثوبها الحريري الابيض كان يسبغ بهاءً أخاذاً على بشرتها السمراء الدافئة . لقد استعادت في تلك اللحظة ما كان لها من الجلال الهادىء العذب ، كأن مزاياها السالفة عادت الى الازدهار على غير

علم منها . وفضلاً عن ذلك ، كان كل شيء فيها يعبّر عن سعادة عميقة شاملة يعجز الكلام عن وصفها . كانت طويلة القامة ، ولكن خيّل الى غسطينو انه لم يرها قط في مثل ذلك الطول ، فقد بدت له بالغة الكبر ، تكاد تملأ الغرفة كلها . وكانت بيضاء ناصعة في الظل المختلط بالنور ، تتحرك كأنها ملكة ، سامدة الرأس على عنق بديع ، وتحت جبهتها الصافية الاشراق عيناها السوداوان تعبران عن التفكير الهادىء المطمئن .

وأخيراً اطفأت جميع الانوار ، ما عدا المصباح القائم على الخزانة الصغيرة الى جانب السرير ، وانحنت لتقبّل ابنها . فأحسّ غسطينو من جديد بأنه غارق في فيض من ذلك العطر الذي يعرفه حق المعرفة . ولما لامست شفتاها عنقه ، لم يستطع إلا ان يسائل نفسه : هل النساء هناك ، في بيت الساحة ، بمثل هذا الجمال وهذه العطور ؟

ولما بقي وحده ، انتظر حوالى عشر دقائق ، تاركاً لأمه متسعاً من الوقت لتبتعد ، ثم نهض ، وأطفأ المصباح ، وذهب الى الغرفة المجاورة على رؤوس اصابعه . وبحث ، في الظلام ، عن الخزانة الموجودة بالقرب من النافذة ، ثم فتح جارورها وملأ جيوبه بالنقود الصغيرة

والاوراق النقدية ، ومرّ بيده في داخل الجارور طولاً وعرضاً كي يتثبّت من انه اصبح فارغاً ، ثم خرج من الغرفة .

وفي الخارج ، راح يركض .

كان تورتيا يقيم في الجانب الآخر من المدينة ، في حي من احياء النوتيين وقلّافي السفن . ومهما تكن المدينة صغيرة ، فقد كان على غسطينو ان يقطع مسافة طويلة . سار اولاً في الازقة المظلمة ، من جهة غابة الصنوبر ، ثم توجه في خط مستقيم ، وهو يركض تارةً ، وتارة يسير مسرعاً ، حتى رأى رؤوس صواري المراكب الراسية في الحوض تلوح فوق البيوت . وكان بيت تورتيا وراء الجسر الحديدي الممتد فوق قناة المرفإ ، في حي يبدو في ضوء النهار قديماً متهدماً بحوانيته الصغيرة واكواخه المصطفة في الشمس الى جانب رصيف عريض مقفر ، تفوح منه روائح السمك والزفت ، وتبدو في جواره مياه البحر الخضراء الملوثة بالزيوت ، وقد انتصبت فيه رافعات الاثقال الجامدة الى جانب زوارق مشحونة بالحصى . ولكن ، في الليل ، كان هذا الحي شبيهاً بغيره من احياء المدينة ، لا يختلف عنها الا بظهور سفينة هنا او هناك ، مما يدل على ان مياه المرفإ متغلغلة بين البيوت.

ورأى غسطينو مركباً شراعياً طويلاً ادكن اللون ، وفوق صواريه وحباله الكثيرة تلمع النجوم في السماء بينما هو يتمايل بهيكله الضخم وصواريه العالية في سكون عميق ، مسايراً مد المياه وجزرها في القناة .

اجتاز غسطينو الجسر متوجهاً نحو البيوت القائمة على الضفة الاخرى من القناة . وكانت هناك مصابيح تلقي اضواء مختلفة القوة على واجهات بيوت حقيرة ، فتوقف تحت نافذة مفتوحة بكاملها ومضاءة ، تتسرب منها ضجة اصوات وادوات طعام ، ورفع اصبعين الى فمه مرسلاً صفيراً حاداً وصفيرين خافتين ، وكانت هذه علامة الاجتماع المتفق عليها في العصابة ، فما لبث ان ظهر احدهم في النافذة ، فقال غسطينو بصوت خافت خجول :

— انا بيزا ...

وكان الشخص الذي اطل من النافذة تورتيا ، فاجاب : اني آتٍ اليك .

وجاء تورتيا محتقن الوجه لكثرة ما شرب من النبيذ ، وهو ما يزال يمضغ لقمة كانت في فمه . فقال غسطينو :

— جئتُ لنذهب معاً الى ذلك البيت ... لدي نقود تكفينا نحن الاثنين .

فبلع تورتيا لقمته بجهد ونظر اليه ، فاستطرد الولد قائلاً :

– ذلك البيت ، ألا تذكره ؟ في الساحة هناك ... حيث توجد نساء ...

فصاح تورتيا وقد فهم اخيراً ما يريد غسطينو :

– آه ! وهل عدت فتذكرت هذا البيت ؟ هيه ! عافاك يا بيزا ... انتظرني قليلاً ، اني عائد اليك بعد لحظة .

ومضى تورتيا راكضاً .

وظل غسطينو في الشارع ، يذرعه ذهاباً واياباً ، دون ان يرفع نظره عن النافذة .

واستغرق غياب تورتيا بعض الوقت . ولما عاد بذل غسطينو جهداً ليتعرف اليه ، فقد اعتاد ان يراه في شكل زري يرتدي بنطلوناً مرقعاً او يسير شبه عارٍ على الشاطىء ، اما الآن فقد بدا بزيّ عامل شاب ، عليه ثوب ادكن اللون لا يرتديه الا يوم الاحد : بنطلون طويل ، وجاكيت ، وطوق ، وربطة عنق . وفي هذا الزي بدا اكبر سناً مما هو ، وقد مشط شعره ، وملسه بالادهان ، وهو الذي كان دائماً مشعث شعر الرأس . وللمرة الاولى رأى غسطينو في بذلة تورتيا

– وهي من الثياب التي تباع جاهزة – الناحية المدنية البلهاء في شخصية تورتيا .

وقال تورتيا متعباً القول بالحركة : هيا بنا !

فركض غسطينو ليلحق به ويسير الى جانبه على الجسر الحديدي ، وهو يسأل :

– وهل ازفت الساعة الآن ؟

فاجاب تورتيا ضاحكاً :

– تأزف الساعة هناك في كل وقت .

ولم تكن الساحة بعيدة ، فهي تقع وراء شارعين لا غير .

وسأل غسطينو من جديد :

– وهل سبق لك ان ذهبت الى ذلك البيت قبل اليوم ؟

– لم اذهب الى هذا البيت بالذات ، ولكني ذهبت الى سواه .

ولم يكن تورتيا مستعجلاً ، فقد كان يسير بخطاه العادية ، فقال :

– الآن ، يجب ان يكنَّ قد فرغن من تناول الطعام . ولن يكون عندهن زبائن . ان الوقت موافق والفرصة سانحة .

وسأل غسطينو : لماذا ؟

– لاننا هكذا نستطيع ان نختار المرأة التي تعجبنا اكثر.
– ولكن كم يوجد هناك من النساء ؟
– ايه ! اربع او خمس ...

واراد غسطينو ان يسأل هل هنّ جميلات ، ولكنه كبت نفسه ولزم الصمت . ولما وصل الى الساحة ، سأل تورتيا : وكيف يتصرف الزائرون عادةً ؟

وكان تورتيا قد شرح له ذلك ، إلا ان استمرار شعوره بانه في دنيا خيالية بعيدة عن الواقع جعله محتاجاً الى سماع الشروح نفسها التي سمعها من قبل .

أجاب تورتيا : كيف يتصرفون ؟ ... لا تحتاج العملية الى براعة زائدة ... يدخل المرء ، فتأتي النسوة ويعرضن نفوسهنّ عليه . يقول لهن : « مساء الخير يا آنساتي ... » يتظاهر بأنه يتحدث اليهن قليلاً ... ليتسنى له ان يراهنّ جيداً ... أهذه المرة الاولى في حياتك تزور مثل هذا المكان ؟

فقال غسطينو وقد استولى عليه الحياء : اعني اني ...

فصاح تورتيا بشراسة :

– لا اظنك ستحاول اقناعي بأنها ليست هذه المرة الاولى ؟ قصّ أكاذيبك في هذا الموضوع على غيري ، لا عليّ انا ...

ثم استطرد بلهجة غريبة :

– ولكن لا تخف .

– وماذا تعني بهذا القول ؟

– اقول لك : لا تخف ، فالمرأة تتعهد بكل شيء ، وما عليك إلا ان تتركها تعمل .

لم يقل غسطينو كلمة . فتلك الصورة التي بعثها تورتيا في خياله ، صورة المرأة التي ستدرّبه على عمل الحب ، كانت سائغة بالنسبة اليه ، وعذبة كعذوبة الأمومة تقريباً . ومع ذلك ، ظل كثير الشكوك ، لا يصدق ما يسمع على الرغم من جميع هذه الشروح .

وتوقف فجأة عن السير ، وجعل ينظر الى ساقيه العاريتين تحت بنطلونه القصير وهو يسأل :

– ولكن ... ولكن ... أيقبلنني وأنا هكذا ؟

فبدا تورتيا كأنه مرتبك حيال هذا السؤال ، ثم قال بلا مبالاة مصطنعة :

– لنمشِ الآن ، ومتى وصلنا الى هناك نتدبر الأمر .

وبطريق ضيقة وصلا الى الساحة ، وكانت غارقة في الظلام ، ما عدا واحدة من زواياها كان فيها مصباح كهربائي يلقي نوراً هادئاً على مساحة واسعة من الارض الرملية غير المهدة . وفي السماء ، تماماً فوق الساحة ،

ظهر هلال احمر مبرقع تشطره في وسطه خصلة رفيعة من الضباب . وفي قلب العتمة الحالكة ، اكتشف غسطينو البيت الذي كان معروفاً بنوافذه البيض ، وكانت كلها مغلقة ، لا يتسلل منها أقلّ شعاع من النور .

وسار تورتيا باتجاه البيت دون أقل تردّد .

ولكن لما وصلا الى وسط الساحة ، الى تحت الهلال ، قال لغسطينو :

– هات النقود ، من الافضل ان احتفظ انا بها .

ولم يكن غسطينو ليثق به ، فقال : ولكن ...

فصاح تورتيا بقساوة : أتريد ان تعطيني النقود ؟ قل : نعم أم لا ؟

فأطاع غسطينو وأفرغ جيوبه في يد رفيقه وهو خجول بتلك الحفنة من النقود الصغيرة ، فقال تورتيا :

– والآن ، اقفل فمك ، واتبعني .

وبينما هما يقتربان من البيت ، تقلص الظلام قليلاً ، فظهر عمودا الحاجز ، والممر ، والباب الخارجي تحت الطنف . ولم يكن الحاجز مغلقاً ، فدفع تورتيا بابه ودخل الى الحديقة . وكان باب البيت مشقوقاً ، فأشار تورتيا الى غسطينو ان يلزم الصمت ، ثم صعد الدرجات الموصلة الى الباب ودخل . ورأى غسطينو المحتدم فضولاً

بهواً صغيراً خالياً ، في داخله باب نصفه من ألواح الزجاج ، ذو مصراعين ، يتسرَّب من خلال زجاجه الازرق والاحمر نور ساطع . وكان دخول الزائرَين قد أطلق جرس تنبيه جعل يرنّ رنيناً متواصلاً . ثم ظهر شبح ضخم كثيف كأنه ظل شخص كان جالساً فنهض .

ومرَّ هذا الشبح على زجاج الباب ، ثم أطلَّت بين المصراعين امرأة يبدو انها خادمة ، بدينة ، متقدمة في السن ، ضخمة الصدر ، ترتدي ثوباً اسود فوقه مئزر ابيض . ظهرت دافعة بطنها الى الامام ، راخية ذراعيها ، ووجهها متورِّم ، متجهّم ، يعبر عن الريبة والحذر تحت كتلة كثيفة من الشعر .

قال تورتيا : نحن هنا .

ولكن صوته وموقفه كانا يدلان على انه متهيّب الموقف ، وهو الذي اشتهر بالجرأة حتى الوقاحة . وقد لاحظ غسطينو ذلك . ثم رأى المرأة تنظر اليهما نظرة متفحصة خالية من العطف ، وتوجه الى تورتيا اشارة معناها : ادخل .

ابتسم تورتيا بسمة الاطمئنان وهرول صوب الباب الزجاجي . ولما اراد غسطينو ان يتبعه ، وضعت المرأة يدها على كتفه قائلة : « انت ، لا ! »

فصاح غسطينو وقد زال خجله دفعة واحدة :

– كيف ؟ لماذا يدخل هو ، وانا لا ؟

قالت المرأة وهي تنظر اليه بامعان :

– ما كان ليجوز لاحد منكما ... ولكن يمكن غض النظر عنه هو ، اما انت فلا .

وقال له تورتيا بلهجة فيها مكر وسخرية :

– انك صغير جداً ، يا بيزا ...

وتوارى خلف مصراعي البـاب ، وظهر لحظةً ظله المزبوع على ألواح الزجاج ، ثم اختفى في النور الساطع .

صاح غسطينو ، وقد اثارته خيانة تورتيا :

– ولكن ... اني ...

فقالت المرأة :

– صه ، يا ولد ، عد الى بيتك .

وذهبت الى الباب وفتحته ، فاذا هي ، وجهاً الى وجه ، امام رجلين يريدان الدخول ، فقال احدهما : « مساء الخير ... مساء الخير ... » وكان بديناً ، احمر الوجه ، بادي المرح والسرور . واستدار قليـلاً وقال لرفيقه ، وهو اشقر ، هزيل ، مصفر الوجه : « اتفقنا : اذا كانت « بينا » حرة آخذها انا ، ولا مجال للتنافس . »

قال الآخر : اتفقنا .

وتوجه الرجل المرح الى المرأة ، فسألهـا مشيراً الى غسطينو :

– وهذا الصبي ، ماذا يريد ؟

اجابت المرأة وقد ارتسمت على فمها بسمة فيهـا مزيج من الهزء والمجاملة :

– كان يريد ان يدخل .

فصاح الرجل بغسطينو :

– كنت تريد ان تدخل ؟ أتريد ان تدخل ؟ في مثل سنك يقيم الاولاد في بيوتهم ... في مثل هـذه الساعة ... في بيوتهم ... في البيت ... في البيت ... البيت .

وكان الرجل يردد كلماتـه محركاً ذراعيه حركات واسعة ، فاعلنت المرأة قائلة :

– هذا ما قلته له .

فقال الشاب الاشقر الهزيل :

– وما عليه اذا تركناه يدخل ؟ انا ، في مثـل سنه ، كنت اضاجع الخادمة .

فاجاب الآخر بنبرة حازمة :

– كفـى ... الى البيت ... الى البيت ... الى البيت !

ودخل بعنف كأنه العاصفة ، وتبعه الاشقر الهزيل ،

فارتد خلفها مصراعا الباب بشدة ، ووجـــد غسطينو نفسه في الخارج ، في الحديقة ، دون ان يدري كيف . وقال في نفسه : هكــذا انتهى كل شيء على أسوإ حالٍ : خانه تورتيا وسلبه نقوده ، ثم طُرد طرداً .

رجع القهقرى وقد اسودت الدنيـا في عينيه ، وراح ينظر الى الباب المشقوق ، والطنف ، والواجهة بما فيهـا من النوافذ البيض المغلقة . وكان يأكله شعور مرير بالخيبة ، وتشتد نقمته بنوع خاص على ذينـك الرجلين اللذين نظرا اليه كأنه طفل . احس بان صيحات السمين المرح ، وما ابدى الاشقر الهزيل من العطف النـاجم عـن الخبرة المجردة ، قد اذّلته اكثر من نفور الخادمة المشبع بالجفاء .

وظل يسير القهقرى ، وهو ينظر الى مـا حوله ، ويراقب في ظلام الحديقة الاشجار والعوسج ، حتى وصل الى الحـاجز . وهنـا لاحظ ، الى اليسار ، جانباً مـن الحديقة مضاء بنور ساطع ، لا ريب في انه متسرب من نافذة مفتوحة في الطابق الارضي . فقال في نفسه انـه قد يستطيع ، من هذه النافذة ، ان يلقي نظرة الى داخل هذا المكان المحظور عليه . وما ان تبادرت هذه الفكرة الى ذهنه حتى سار صوب النـافذة محاولاً ان يحدث اقل ما يمكن من الضجة .

وبالفعل ، كانت احدى نوافذ الطابق الارضي مفتوحة ، ولم تكن حافتها عالية ، فدنا منهـا ووقف في افضل زاوية يستطيع منها ان يرى دون ان يُرى بسهولة .

كانت الغرفة صغيرة ، متلألئة النور ، مكسوة الجدران بورق زاهي الالوان ، مزين بصور ازهار خضر وسود . وفي الجهة المقابلة للنافذة ظهر ستار معلق بحلقات خشبية في قضيب من النحاس . ولا ريب في ان هـذا الستار يحجب باباً . ولم يكن هناك اثاث ... إلا ان غسطينو رأى في احدى الزوايا ساقين ، مرتفعة احـداهما على الاخرى ، وقد انتعلتا حذاء اصفر ، فتبادر فوراً الى ذهنه انهما ساقا رجل جالس بارتياح على مقعد وثير .

أحس غسطينو بالخيبة ، وكاد ينسحب ليمضي في سبيله ، لما ارتفع الستار وظهرت وراءَه امرأة .

كانت ترتدي ثوباً من الموسلين اللازوردي اللون ، ذكّر الولد بقمصان امه . وكان الثوب فضفـاضاً ، شفافاً ينحدر الى القدمين ، وتبـدو المرأة فيـه كأنهـا تسبح في مياه البحر ، وكأن اعضاءها الطويلة الصفراء تتمايل فيـه وترسم خطوطـاً مستديرة ومتراخية غنجـاً ودلالاً حول النقطة الدكناء في اسفـل البطـن . وكان هذا الثوب العجيب الذي ادهش غسطينو مشقوقاً بفتحة

مستطيلة تكشف عن الصدر وتنحدر الى الخصر ، وقد نفر منها بصعوبة نهدان مستديران ممتلئان ، فاذا هما عاريان يندس احدهما بالآخر ، بينما تلتف حولها غضون الثوب لتلتقي حول العنق . وكان شعر المرأة قاتماً ، متموّجاً ، مبعثراً على كتفيها ، ووجهها مسطحاً ، عريضاً ، اصفر ، ينم عن دعارة صبيانية لاهية ، وفي عينيها المتعبتين ، وعلى ثغرها وشفتيها المحمرتين ، كل معاني العبث وجماح الهوى ...

خرجت من خلف الستار ويداها وراء ظهرها ، وصدرها نافر الى أمام . وظلت برهة طويلة واقفة تنتظر ، وهي منتصبة ، جامدة ، لا تقول كلمة . وكان يبدو انها تنظر الى حيث كان الرجل الذي لم يظهر منه سوى ساقيه المرتفعة احداهما على الاخرى ، في وسط الغرفة . ثم ادارت ظهرها ، ورفعت الستار ، وتوارت كما جاءت في صمت تام . وفي هذه اللحظة اختفت ساقا الرجل عن عيني غسطينو ، وُسمعت ضجة كالتي يحدثها المرء عندما يكون جالساً فينهض ، فخاف غسطينو وابتعد عن النافذة .

عاد الى الممر ، ودفع باب الحاجز ، فاذا هو في الساحة . وكان يشعر بخيبة كبيرة لاخفاقه في محاولته .

وقد ساوره الرعب حيال مـــا ينتظره في الايام المقبلة . وراح يقول في نفسه انه لم يحدث له شيء جديد ، وانه لم يستطع ان يمتلك امرأة ما ، وان تورتيا سلبه نقوده ، وانه في اليوم التالي سيعود الى ما كان عليه ، فيصبـــح هدفاً لهزء الاولاد وسخريتهم ، وتتجدد آلامه الناجمة عن علاقاته الدنسة بامه . لقد رأى تلك المرأة تعرض نفسها على شهوة رجل ، وهي منتصبة الجسم ، في ثوبها الشفاف ، عارية الصدر . ولكنه ادرك بالحدس ادراكاً مبهماً ان هذه الصورة غير الكافية ، المشوبة بالألغاز والمعميـات ، هي كل ما سيبقى له ليرافقه طوال سنوات عديدة . وفي الواقع كانت هناك سنوات وسنوات فارغة ، شقية ، تعترضه وتحول بينه وبين التجربـة المحررة التي ُمنـع من الوصول اليها منذ قليل . وخطر في باله انه لن يتمكن ، قبـل ان يبلغ سن تورتيا ، من تدبّر امره دفعة واحدة ليخرج من ذلك الضباب الكثيف ، غير الشفاف ، الذي سجنته فيه مرحلته الانتقالية . وكان عليه ، بانتظار الفرج ، ان يواصل الحياة نفسها . ولدى هـذه الفكرة ، احس بكل ما في كيانه يثور كأنه اصطدام بالمستحيل المطلق .

وصل الى البيت ، ودخـل دون ان يحـدث ضجة ، فرأى في غرفة الانتظار حقائب الضيفة ، وسمع كلاماً في

الصـالون ، فصعـد السلم وراح ينطرح على سريره الصغير المنصوب في غرفة امه . ودون ان يشعل الضوء خلع ثيابـه بنزق وطرحهـا على الارض ، ثم انسلَّ الى فراشه فاتحاً عينيه في الظلام .

انتظر طويلاً . وخيّل اليه اخيراً انه يغفو ، ثم غرق في النوم .

واستيقظ مرتجفـاً . وكان المصباح الصغير الى جـانب السرير مضاءً ينير ظهر امه وهي في قميص النوم ، وقد وضعت احدى ركبتيها على السرير متأهبة للرقاد .

قال بصوت مرتفع يكاد يكون عنيفاً : ماما !

فاستدارت وجاءت اليه تسأله :

-- ما بك ، يا حبيبي ؟ ماذا تريد ؟

وكان قميصها شفافـاً كثوب تلـك المرأة في بيت الساحة ، وكانت تقاطيـع جسدها وخطوطـه ترتسم تحت القميص كما ارتسمت اشـكال ذلـك الجسم الآخر بخطـوط وظلال تظهر وتتوارى كأنها متحركة رجراجة .

قال غسطينو بصوته ذاته المرتفع الساخط :

— اود ان اسافر غداً .

وكان يحاول ان ينظر ، لا الى جسدها ، بـل الى وجههـا .

قالت : لماذا ؟ ما بك ؟ ألست مسروراً هنا ؟

فردد قائلاً : اود ان اسافر غداً .

قالت ، وهي تمرّ بيدها على جبهته ، كأنها تخشى ان يكون مصاباً بالحمى :

– ولكن ، قل لي ، ما بك ؟ ألست مسروراً هنا ؟ لماذا تريد ان تسافر ؟

لزم غسطينو الصمت . وكان قميص امه يذكره بثوب المرأة هناك ، في البيت ، فالاصفرار نفسه في الجسد الكسول المقدم هبة سائغة . على ان قميص الام كان مغضناً يجعل المشهد حميماً اكثر وحافلاً بالاسرار . وجعل غسطينو يفكر بان صورة تلك المرأة ، عوضاً عن ان تقدم له حجاباً يستر به امه ، كما كان يرجو ، زادت انوثة هذه الام بروزاً وقوة ايحاء .

قال غسطينو فجأة دون ان يدري هو نفسه لماذا يتكلم هكذا :

– انك تعاملينني دائماً كأني طفل .

فاخذت تضحك وتداعب خده قائلة :

– منذ الآن ، ساعاملك كأنك رجل ... فهل تتحسن الاحوال ؟ والآن نم هانئاً ، فقد طالت السهرة .

وانحنت عليه فقبلته ، واطفأت الضوء ، وسمعها غسطينو تستلقي على سريرها .

ولم يستطع إلا ان يفكر في نفسه قائلاً قبل ان ينام : « كأني رجل ... »

ولكن الواقع انه لم يكن قد اصبح رجلاً ، وكان عليه ان يعيش ، وان يتألم زمناً طويلاً ، قبل ان يصير رجلاً ...

هذا الكتاب

مأساة المراهقة هي مأساة الانسان، لأن أثرها البليغ يطبع الحياة باسرها ، وكثيراً ما يشوّش الفكر ، ويضلّل الشعور، ويخلق العقد ، إن لم يجد من يتداركه بالتوجيه والارشاد .

وعلى هـذه المأساة أكب الكاتب الايطالي المبدع ألبيرتو مورافيا ، في قصته « غسطينو » ، فكان محللاً بارعاً ، بعيد النظر ، مرهف الاحساس ؛ ألبس الحوادث ثوباً من البيان المشرق ، والواقعية المدهشة بوضوحها الكاشف عن اعمق ما في النفس من الخفايا .

وعلى ضوء هذه النظرة الى مـا يعانيه الاحداث من الحيرة ، والارتباك، والآلام حين يدخلون مرحلة المراهقة، عمد كثيرون مـن علماء الاجتماع الى المطالبة بالتربية الجنسية التي أُدخلت على برامج القسم الاكبر من المدارس الاوروبية . والغاية المتوخاة من هذه التربية هي انقاذ المراهقين من المأساة الخطرة التي عاناها بطل قصة « غسطينو » .

الثمن : ليرتان لبنانيتان او ما يعادلهما .